THE PEOPLE THAT TIME FORGOT

الترجمة العربية الأولى

البشر الذين نسيهم الزمن

أحياء خارج الزمن في قلب كاسباك

Edgar Rice Burroughs



إدغار رايس بوروز



اسم الكتاب: البشر الذين تسيهم الزمن
الجزء الثاني من ثلاثية كاسباك
اسم المؤلف: إدغار رايس بوروز
اسم المترجم: سماح الجلوي
تصنيف الكتاب: روايـــــــــه
تصميم الغلاف: نـدي اسامة
تنسيق داخلي: أيمن عبد الباري
رقم الإيداع: 2024 / 29552
الترقيم الدولي: 5 - 26 - 9647 - 977 - 978

العنوان: ١٨٣ ش التحرير عمارة ستراند وسط البلد - القاهرة - مصر
التليفون: ٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠

الفصل الأول

أجد نفسي مضطراً للاعتراف، على الرغم من أنني قطعت مسافة طويلة كي أضع مخطوطة بوين تايلر بين يدي والده، أنني لم أزل أشعر بشكوك حائرة بشأن مصداقيتها. فكيف لي أن أنسى أن بوين لم تمضِ سوى سنوات قليلة منذ أن كان واحداً من أشهر الساخرين في جامعته؟ والواقع أنه بينما كنت جالساً في مكتبة عائلة تايلر في سانتا مونيكا، بدأ يراودني نوع من الحرج، وتمنيت لو أنني اكتفيت بإرسال المخطوطة بالبريد السريع بدلاً من أن أحملها بنفسي. لأنني ببساطة لا أستمتع بأن أكون موضع سخرية. صحيح أن لديّ حساً عميقاً بالدعابة، لكن فقط بشرط أن لا تكون النكتة عليّ.

كان السيد تايلر الأب متوقعاً وصوله في أي لحظة، فقد جلبت آخر باخرة من هونولولو أخباراً عن تأخر يخته «التوريدور» الذي كان قد تجاوز موعده المحدد للإبحار بأربع وعشرين ساعة. وأكد لي مساعده، الذي بقي في المنزل، أن لا شك في أن «التوريدور» قد أبحر في الوقت المحدد، فصاحب العمل معروف بتصميمه الذي لا يلين، بحيث لا شيء سوى «قوة قاهرة» قد يوقفه عن تحقيق ما خطط له. كما أنني كنت على دراية بأن جهاز الإرسال اللاسلكي لليخت مغلق، ولن يُستخدم إلا في حالات الضرورة القصوى. لم يكن هناك سوى الانتظار، فانتظرنا، ومرت الساعات.

تناقشنا مطولاً حول المخطوطة، وأطلقنا العنان لتكهناتنا بشأنها وبخصوص الأحداث الغريبة التي سردتها. كان قصف السفينة التي كان على متنها بوين ج. تايلر الابن في طريقه إلى فرنسا للانضمام

إلى سيارة الإسعاف الأمريكية واقعة مشهورة، وقد تأكدنا منها عبر البرقية المرسلة إلى مكتب نيويورك التابع للمالكين، والتي أكدت أن الآنسة لا رو كانت قد حجزت تذكرتها لتلك الرحلة. لكن الغريب في الأمر أنه لم يتم ذكر اسميها أو اسم بوين ضمن قائمة الناجين، ولم تُعثر جثتاهما أيضًا.

أما بالنسبة لنجاتهما على يد السفينة الإنجليزية، فقد كانت احتمالية معقولة تمامًا، كما أن استيلاء طاقم السفينة على الغواصة الألمانية « يو-33» لم يكن أمرًا مستبعدًا. أما مغامراتهم خلال الرحلة البحرية الخطيرة، التي طالت بسبب خيانة بنسون حتى وجدوا أنفسهم في مياه جنوب المحيط الهادئ النائية، مع نفاد المؤن وبراميل المياه المسمومة، ورغم أن تلك الأحداث قد تبدو أقرب إلى الخيال، فقد كانت بدت منطقية بما يكفي في سياق المخطوطة، حيث تجلت، حدثًا تلو الآخر، بتسلسل منطقي.

لطالما كانت كابرونا تُعدّ أرضًا أسطورية إلى حد بعيد، رغم أن أحد كبار البحارة في القرن الثامن عشر قد أكد وجودها؛ ولكن، جعلتنا رواية بوين نراها أكثر واقعية من أي وقت مضى، رغم المسافات الشاسعة التي تفصلنا عن تلك الأرض بين المحيطات الواسعة. نعم، كانت الرواية تثير حيرتنا. كنا جميعًا نتفق على استحالتها التامة، ولكن لم يستطع أحد منا أن ينكر أن كل ما ورد فيها كان ضمن نطاق الممكن. كانت النباتات والحيوانات الغريبة التي تحدث عنها في كاسبك قد تصبح ممكنة إذا أخذنا في الحسبان الظروف المناخية الدافئة الكثيفة التي تحيط بالفوهة البركانية، وهي مشابهة إلى حد بعيد لتلك التي كانت سائدة في العصر الطباشيري على مستوى

العالم آنذاك. أما مساعد السيد تايلر، فقد كان قد سمع عن كابرونا واكتشافاتها، لكنه اعترف بأنه لم يأخذ تلك الأخبار على محمل الجد. لكننا جميعًا اتفقنا على أن البيان الأكثر صعوبة في تفسيره هو ذاك الذي أورد أنه لا يوجد أطفال بين القبائل المختلفة التي تواصل معها تايلر. كان هذا البيان غير متسق مع ما ورد في المخطوطة. عالم من البالغين فقط! كان ذلك أمرًا مستحيلاً.

ظل تساؤلنا قائمًا حول مصير برادلي ورفاقه من البحارة الإنجليز. فقد عثر تايلر على قبور اثنين منهم، فكم منهم قد قضى نحبه في تلك الأرض الغامضة؟! تساءل مساعد السكرتير، وهو يفكر إن كان الكلب «نوبس» لا يزال برفقة الفتاة، ثم ابتسمنا معًا ابتسامة غير معلنة تقبلنا فيها حقيقة القصة العجيبة برمتها: «هل كانت كل الأمور كما هي؟»

قال مساعد السكرتير، وقد بدا وكأنه يلحظ سخافة ما يود قوله: «ربما أبدو أحمقًا، ولكن، بحق السماء، لا أستطيع إلا أن أصدق ذلك. أستطيع أن أرى تلك الفتاة الآن، يقف الكلب الإيرديل الضخم بجانبها، يحميها من رعب ملايين السنين التي مضت. أستطيع أن أتصور المشهد بكل تفاصيله، رجال غريمالدي ذوو الملامح الشبيهة بالقردة متجمعين في كهوفهم الموحلة؛ البتيروداكتيل العملاق يحلق في السماء الثقيلة بأجنحته الشبيهة بأجنحة الخفافيش؛ الديناصورات الضخمة تزحف بجسدها الهائل تحت ظلال الغابات الجليدية التي كانت تغطي الأرض في عصور ما قبل التاريخ. ثم التنانين التي كنا نظنها مجرد أساطير، حتى علمتنا العلوم أنها كانت ذكريات حية لأول البشر، تناقلها الأجيال عبر العصور بالكلمة، من الأب إلى الابن،

منذ فجر الإنسانية الذي لم يسجل بعد.»

أجبت قائلاً: «إنه أمر مذهل - إن كان صحيحًا. والتفكير في أن تايلر وآنسة لا رو قد يظلان هناك حتى الآن، محاطين بالمخاطر الفظيعة، وأن برادلي قد يكون على قيد الحياة، وربما بعض من رفاقه! لا يسعني إلا أن أتمسك بالأمل أن يكون بوين والفتاة قد عثرا على الآخرين. آخر ما عرفه بوين عنهم كان أنهم ستة فقط - الضابط برادلي، المهندس أولسون، وويليسون، وويتلي، وبرادي، وسينكلير. قد يكون لديهم بعض الأمل إذا تمكنوا من توحيد قواهم، لكن إذا كانوا متفرقين، أخشى أن الوقت لن يرحمهم.»

قال مساعد السكرتير، «لو فقط لم يسمحوا للأسرى الألمان بالاستيلاء على الغواصة U-33! كان يجب على بوين أن يكون أكثر حكمة من أن يثق بهم على الإطلاق. من المحتمل أن فون شونفورتس قد نجح في العودة إلى كيل سالمًا ويستعرض الآن بوسام الصليب الحديدي. ومع إمدادات ضخمة من النفط من الآبار التي اكتشفوها في كاسباك، وفرة من الماء والطعام، لا يوجد سبب يمنعهم من عبور النفق المغمور تحت المنحدرات الحاجزة والفرار بنجاح.»

قال مساعد السكرتير بنبرة تحمل شيئًا من التردد: «لا أحبهم، لكن أحيانًا يجب أن تحترمهم.»

أجبت بتوتر: «نعم، وليس هناك ما أود فعله أكثر من إذلالهم!»، ثم رن جرس الهاتف فجأة. أجاب مساعد السكرتير، وبينما كنت أراقب وجهه، لاحظت كيف تدلى فكه وبدت بشرته شاحبة. وضع السماعة

وهو في حالة من الذهول، وكأنما سحبته غيبوبة مفاجئة. قال بصوت مضطرب: «يا إلهي! هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا!»

سألته بقلق» ماذا؟»

أجاب بصوت هادئ، محملًا بالصدمة: «السيد تايلر... توفي. توفي في البحر فجأة، البارحة.»

استغرق الأمر عشرة أيام لترتيب دفن السيد بوين ج. تايلر الأب، ووضع خطط إنقاذ ابنه. تولى السيد توم بيلينغز، سكرتير السيد تايلر الراحل، مسؤولية كل شيء. كان مثالًا للقوة والطاقة والإرادة، مجتمعة في شخص واحد. لم أرَ شابًا أكثر ديناميكية منه في حياتي. كان يتعامل مع المحامين والمحاكم والتنفيذيين وكأنهم طين في يديه، يشكلهم ويصقلهم حتى ينفذوا إرادته.

كان بيلينغز زميلًا لبوين تايلر في الكلية وأحد أعضاء الأخوة الجامعية، وقبل ذلك كان راعي بقر فقيرًا في إحدى مزارع عائلة تايلر الكبرى. اختاره تايلر الأب من بين الآلاف من الموظفين، فصنع منه رجلًا، أو بالأحرى، منح له الفرصة ليصنع نفسه. ثم جاء تايلر الابن، الذي كان بارعًا في فهم طبائع البشر مثل والده، فبنى بينه وبين بيلينغز صداقة وثيقة، وبفضلهما معًا أصبح بيلينغز شخصًا مستعدًا للتضحية من أجل آل تايلر كما لو أنه يضحي من أجل وطنه، ومع ذلك، لم يكن بيلينغز من أولئك الذين يذلّون أنفسهم أو يتملقون. غالبًا ما لا أتحمس للحديث عن الرجال، لكن بيلينغز يقترب من صورة «الرجل الحقيقي» في ذهني أكثر من أي شخص آخر قابلته. أجرؤ على القول إنه قبل أن يرسله بوين ج. تايلر إلى الجامعة، لم

يكن قد سمع أبدًا كلمة «أخلاق»، ومع ذلك، لا أستطيع إلا أن أكون واثقًا تمامًا من أنه لم يخرق يومًا أي قاعدة من قواعد الأخلاق التي يتطلبها أن يكون رجلًا أمريكيًا محترمًا طيلة حياته.

بعد عشرة أيام من إنزال جثمان السيد تايلر من السفينة «توريادور»، انطلقنا في رحلة عبر المحيط الهادئ بحثًا عن جزيرة كابرونا. كنا أربعين شخصًا، بما في ذلك القبطان وطاقم السفينة، وكان بيلينغز العنيد هو قائدنا. استغرقت رحلتنا وقتًا طويلًا ومملًا، إذ كانت الخريطة القديمة التي حدد عليها مساعد السكرتير موقع الجزيرة غير دقيقة على الإطلاق. وعندما ظهرت أمامنا جدران الجزيرة الداكنة من وسط ضباب المحيط، كنا قد ابتعدنا جنوبًا لدرجة أننا لم نكن نعرف إذا كنا في أقصى جنوب المحيط الهادئ أم أننا وصلنا إلى القطب الجنوبي. كانت الجبال الجليدية تحيط بنا، والطقس شديد البرودة.

طوال الرحلة، كان بيلينغز يتفادى ببراعة الإجابة على الأسئلة المتعلقة بكيفية دخولنا إلى كاسباك بعد العثور على كابرونا. كان مخطوط بوين تايلر واضحًا للجميع، إذ أشار إلى أن المخرج تحت الأرض لنهر كاسباك هو الطريق الوحيد للوصول إلى عالم الفوهة المحصن خلف الجروف الشاهقة. كان فريق تايلر قادرًا على عبور هذا الممر لأن قاربهم كان غواصة، بينما كانت السفينة «توريادور» عاجزة عن التحليق فوق تلك الجروف أو الإبحار تحتها. أمضى جيمي هوليس وكولين شورت وقتًا طويلاً في ابتكار خطط عبثية لتجاوز تلك العقبة، وتراهنوا على ما قد يكون في ذهن توم بيلينغز؛ لكن بمجرد أن تأكدنا جميعًا من أننا وصلنا إلى كابرونا، دعا بيلينغز

الجميع إلى اجتماع.

قال بيلينغز: «لم يكن هناك أي فائدة من الحديث عن هذه الأمور قبل أن نجد الجزيرة. أقصى ما يمكننا فعله هو التخمين حتى نتمكن من فحص الساحل بدقة. كل واحد منا قد رسم في ذهنه صورة ساحل كابرونا بناءً على مخطوطة بوين، ومن غير المرجح أن تشبه أية صورة في أذهاننا ما سنراه في الواقع. لدي ثلاث خطط لتسلق الجروف، وقد أحضرت الوسائل اللازمة لتنفيذ كل واحدة منها.»

أولاً، أمتلك مثقابًا كهربائيًا مزودًا بكابل مقاوم للماء يمتد من مولدات السفينة وصولًا إلى قمة الجرف، حيث نقوم بتثبيت توريادور على مسافة آمنة من الشاطئ. كما يوجد لدينا عدد كافٍ من القضبان الحديدية لصناعة سلم يمتد من قاعدة الجرف إلى قمته. إن العملية ستكون طويلة، مرهقة، ومشحونة بالمخاطر؛ إذ سيتعين علينا حفر الثقوب وإدخال درجات السلم من الأسفل إلى الأعلى. ورغم ذلك، أرى أن الأمر قابل للتحقيق. ثانيًا، لدينا هاون إنقاذ يمكننا من إطلاق حبل نحو قمة الجرف. لكن هذه الخطة تتطلب أن يتسلق أحدنا إلى الأعلى، ويظل هناك احتمال كبير لأن ينقطع الحبل أو أن تنزلق الخطافات المثبتة في نهايته. أما الخطة الثالثة، فهي الأكثر منطقية وقابلية للتنفيذ. أنتم على دراية بالصناديق الكبيرة التي تم تحميلها في مستودع السفينة قبل الإبحار، وأعلم أنكم لاحظتم ذلك لأنكم سألتموني عن محتوياتها وعلقتم على الحرف «H» الكبير المرسوم على كل منها. تلك الصناديق تحتوي على أجزاء من طائرة مائية. سأقوم بتجميع هذه الأجزاء على الشاطئ الذي وصفه بوين في مخطوطته-ذلك الشاطئ

الذي عثر فيه على جثة رجل شبيه بالقرد-إذا ما كان هناك مساحة كافية فوق مستوى المياه المرتفعة. وإذا لم يكن هناك مكان كافٍ، فسنقوم بتجميع الأجزاء على سطح السفينة ثم نقلها من الجانب. بعد تجميع الأجزاء، سأحمل المعدات والحبال إلى قمة الجرف، وعندئذٍ سيكون من السهل رفع فريق البحث وإمداداته بأمان، أو يمكنني إجراء عدد كافٍ من الرحلات لنقل الجميع إلى الوادي خلف الحاجز. كل شيء، بالطبع، سيتوقف على نتائج استطلاعي الأول.

في تلك الظهيرة، أبحرنا ببطء بمحاذاة الحاجز العالي لكابرونا. قال بيلينغز، بينما كنا نمد أعناقنا لنتفحص القمة الوعرة التي تعلو فوقنا: «ترون الآن مدى عبثية إضاعة وقتنا في وضع تفاصيل خطة لتجاوز هذا الجرف.» وأشار بإصبعه الكبير نحو الجروف الشامخة. «سيستغرق الأمر أسابيع، وربما شهورًا، لبناء سلم يصل إلى القمة. لم أكن أدرك مدى ضخامة هذه الجدران المحصنة.»

كان الارتفاع هائلًا. لم يكن بمقدور مدفعنا أن يرسل الحبل أكثر من منتصف الطريق نحو قمة النقطة الأدنى. لم يعد هناك مجال لمناقشة أي خطة أخرى سوى الطائرة المائية. «سنبحث عن الشاطئ ونبدأ العمل.» في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، أعلن مراقبنا أنه رصد الأمواج على بُعد ميل تقريبًا. ومع اقترابنا، لاحظنا جميعًا خط الأمواج المنكسرة الذي تتخلله أمواج تتدفق على شاطئ ضيق. تم إنزال القارب، وصعدنا خمسة منا إلى الشاطئ، وتبللنا جميعًا في المياه الباردة التي تشبه الثلج، لكننا كوفئنا سريعًا باكتشاف عظام نظيفة، بدت وكأنها هيكل عظمي يعود إلى نوع من القرود المتقدمة أو لإنسان بدائي. كان هذا الاكتشاف إلى جانب قاعدة الجرف. شعر

بيلينغز بالارتياح، وكذلك شعرنا جميعًا بأن هذا هو الشاطئ الذي ذكره بوين. كما وجدنا مساحة كافية لتجميع أجزاء الطائرة المائية.

اتخذ بيلينغز قراره بسرعة، ولم يضيع وقتًا في التنفيذ. ونتيجة لذلك، قبل منتصف الظهيرة، كنا قد أنزلنا جميع الصناديق الكبيرة المميزة بعلامة «H» على الشاطئ، وبدأنا في فتحها على عجل. بعد يومين من العمل الدؤوب، كانت الطائرة قد جُمعت وضُبطت بشكل كامل. قمنا بتعبئة الحبال والطعام والماء والذخيرة داخلها، ثم طلب كل منا من بيلينغز أن يكون هو المرافق له في الرحلة. لكنه رفض بشكل قاطع، ولم يسمح لأحد بمرافقته. هذا هو بيلينغز؛ إذا كانت هناك مهمة صعبة أو محفوفة بالمخاطر يمكن لرجل واحد أن يتولى تنفيذها، فهو حتمًا سيكون هذا الرجل. وإذا استدعت الحاجة إلى مساعدة، لم يكن يطلب متطوعين، بل كان يختار الشخص أو الأشخاص الذين يراهم الأنسب لهذه المهمة. كان يرى أن مبادئ الخدمة التطوعية تحمل خللًا جوهريًا، وأن طلب المتطوعين يعد بمثابة شك في شجاعة وولاء المجموعة بأكملها.

دفعنا الطائرة إلى حافة المياه، وصعد بيلينغز إلى مقعد الطيار. حدث تأخير طفيف بينما كان يتأكد من أن كل شيء جاهز، ثم تولى جيمي هوليس مهمة فحص الأسلحة والذخيرة ليتأكد من عدم نسيان أي شيء. إلى جانب المسدس والبندقية، كان هناك مدفع رشاش مثبت أمامه على الطائرة، مع ذخيرة لكل الأسلحة الثلاثة. لقد جعلتنا رواية بوين عن مخاطر كاسباك ندرك تمامًا ضرورة أن نكون مستعدين بأدوات الدفاع اللازمة.

أخيرًا، اكتملت كافة التحضيرات. بدأ المحرك في إصدار صوته العميق، ودفعنا الطائرة باتجاه الأمواج. ومع مرور اللحظات، بدأت تنزلق فوق سطح البحر، ثم ارتفعت بلطف، حاملةً معها أجنحتها التي تصطدم بالهواء، وأدت دورانًا واسعًا في السماء أثناء صعودها المتسارع. وبعد لحظات، حلقت فوقنا من علوٍ شاهق ثم اختفت خلف قمة المنحدرات. وقفنا جميعًا في صمتٍ مطبق، ملامحنا مشدودة نحو القمة البعيدة التي نترقب منها ما سيأتي. كان هوليس، الذي أصبح قائدًا الآن، يراقب ساعته بقلقٍ مستمر.

قال شورت بحنق: «يا إلهي، ينبغي أن نسمع منه قريبًا!»

ضحك هوليس ضحكة عصبية وقال: «لقد مضى عليه عشر دقائق فقط، ولكنها كالعمر بأسره!» قاطعه شورت وهو يتنهد. «ما هذا؟ هل سمعت ذلك؟ إنه يطلق النار! إنها رصاصات المدفع الرشاش! يا إلهي! ونحن هنا، عاجزون تمامًا مثل مجموعة من السيدات العجائز، على بعد عشرة آلاف ميل! لا نستطيع أن نفعل شيئًا. لا نعرف ما الذي يحدث. لماذا لم يسمح لأحدنا بالذهاب معه؟»

نعم، كان ذلك بالفعل صوت المدفع الرشاش. كان واضحًا وقويًا في آذاننا، استمر لأكثر من دقيقة، ثم ساد الصمت. كان ذلك قبل أسبوعين. ومنذ ذلك الحين، لم تصلنا أي إشارة أو خبر عن توم بيلينغز.

الفصل الثاني

لن أنسى أبدًا انطباعاتي الأولى عن «كاسباك» وأنا أحلق في السماء فوق المنحدرات المحيطة. من على الطائرة، كان نظري يتسلل عبر الضباب الكثيف إلى المشهد الغامض الذي يمتد أسفلنا. كان الجو الحار والرطب في «كاسباك» يلتقي بالتيارات الهوائية الباردة القادمة من القارة القطبية الجنوبية، لتجتاح قمة الفوهة، وتطلق شريطًا رقيقًا من البخار يمتد عبر المحيط الهادئ. من خلال ذلك الضباب، بدا المشهد كلوحة ضخمة بأسلوب انطباعي، حيث امتزجت الألوان الخضراء والبنية والقرمزية والصفراء حول الزرقة العميقة للبحر الداخلي، مجرد بقع من الألوان التي تمايلت واصطفّت بتأثير الضباب المتلاطم.

انحنيت الطائرة بالقرب من المنحدرات، وتبعت مسارها لمسافة عدة أميال بحثًا عن مكان مناسب للهبوط. ولكنني لم أتمكن من العثور على أي علامة تدل على مكان آمن. عدت بعدها لأطير على مستوى منخفض، باحثًا عن منطقة مفتوحة بالقرب من قاعدة المنحدر الهائل، لكنني لم أتمكن من إيجاد مساحة كافية لضمان الأمان. كنت أطير على ارتفاع منخفض جدًا في تلك اللحظات، ليس فقط بحثًا عن أماكن للهبوط، بل أيضًا مراقبًا الحياة الغزيرة التي كانت تنبض تحت قدمي. اقتربت من الطرف الجنوبي للجزيرة حيث يتوغل ذراع من البحيرة بعيدًا إلى الداخل، ورأيت سطح الماء مظلمًا تمامًا بمخلوقات من نوع ما. كنت مرتفعًا جدًا لدرجة أنني لم أتمكن من التمييز بين الأفراد، لكن الانطباع العام كان لجيش هائل

من الوحوش البرمائية. أما اليابس، فقد كان يعج بالكائنات الزاحفة والقافزة والراكضة والطائرة. ومن بين تلك الكائنات الطائرة، كان أحدها يكاد يقضي عليّ بينما كانت عيني مثبتتين على هذا المشهد الغريب أسفلي.

كان أول ما لفت انتباهي لوجوده هو اختفاء الضوء فجأة من السماء، حيث حجبت أشعة الشمس عني في لحظة واحدة. رفعت رأسي بسرعة نحو الأعلى، ليظهر أمامي مخلوق مرعب يندفع نحوي. كان لا بد أنه بلغ من الحجم ما يقترب من 80 قدمًا، من طرف منقاره الطويل المشوه إلى نهاية ذيله السميك القصير، وأجنحته الممتدة على نفس الطول. كان يقترب مني مباشرة، وصوت صفيره المرعب يملأ الفضاء-صوت تمكنت من سماعه رغم دوي دوران المروحة. تقدم المخلوق مباشرة نحو فوهة المدفع الرشاش، فأطلقت النار على صدره، لكنه استمر في التقدم نحوي. ما اضطرني للتقليل من ارتفاع الطائرة والانحراف جانبًا، رغم أنني كنت قريبًا جدًا من الأرض.

لم يخطئ المخلوق في تقدير مساره إلا ببضعة أقدام، وعندما صعدت بالطائرة للأعلى، استدار ليتبعني. لكنه تراجع قليلاً، حتى وصل إلى هواء القمم الباردة للمنحدرات، وهناك استدار مرة أخرى ليغوص نحو الأرض. وكان لا بد أن يدفعني شيء ما، ربما غريزة الإنسان الطبيعية للقتال والمطاردة، لألاحقه، فمالت الطائرة وغطست نحو الأسفل. وحين دخلت أجواء كاسباك الدافئة، عاد الكائن ليتحرك نحو الهجوم مجددًا، مرتفعًا فوقي في محاولة للانقضاض من الأعلى. في تلك اللحظة، كانت زاوية المدفع الرشاش،

الذي كان موجهًا نحو الأعلى بزاوية 45 درجة، هي الأكثر فاعلية، إذ لا يمكنني تعديل سلاح الطائرة بسهولة. لو كان هناك شخص آخر معي، لكنا تمكنا من إطلاق النار عليه من أي زاوية، لكن بما أن أسلوب الهجوم للمخلوق كان دائمًا من الأعلى، فقد وجدت نفسي دائمًا مستعدًا لهجومه بوابل من الرصاص. استمر القتال لأكثر من دقيقة، قبل أن ينقلب المخلوق فجأة في الهواء ويسقط نحو الأرض.

كنت أعيش مع بوين في السكن الجامعي، وقد تعلمت منه الكثير خارج نطاق المقررات الدراسية. كان طالبًا مجتهدًا رغم حبه للمرح، وكانت هوايته المفضلة هي علم الحفريات. اعتاد أن يحدثني عن الكائنات الحية من العصور السابقة، من نباتات وحيوانات، فأصبحت على دراية جيدة بالحيوانات التي عاشت في العصور القديمة، من الأسماك والبرمائيات إلى الزواحف والثدييات. وعندما هاجمني ذلك المخلوق، أدركت فورًا أنه كان نوعًا من الزواحف المجنحة التي كان من المفترض أن تنقرض منذ ملايين السنين. هذا ما جعلني أتأكد أن بوين لم يبالغ في شيء مما ذكره في مخطوطته.

بعد أن تخلصت من أول أعدائي، عدت مرة أخرى للبحث عن مكان آمن أتمكن فيه من الانتظار. كنت في غاية القلق؛ فبالإضافة إلى رغبتي في تهدئة عقول رفاقي، كان هناك الحاجة الملحة لنقلهم وإمداداتنا إلى داخل كاسباك لبدء مهمتنا في العثور على بوين تايلر وإنقاذه. ولكن، ما إن سقطت جثة الزاحف المجنح على الأرض حتى أحاطت بي عشرات الكائنات المخيفة، بعضها ضخم وبعضها صغير، ولكن جميعها كانت عازمة على تدميري. لم أتمكن من التصدي لهم جميعًا، فقررت أن أرتفع سريعًا لأصل إلى الطبقات الباردة التي لم

تجرؤ تلك الكائنات على متابعتني إليها. وفجأة، تذكرت ما ذكره بوان في سرد قصته: كلما اتجه المرء شمالًا في كاسباك، تقل أعداد هذه الزواحف الرهيبة، التي تجعل حياة البشر مستحيلة في الطرف الجنوبي من الجزيرة.

لم يكن أمامي سوى البحث عن مكان شمالي أكثر للهبوط، ثم العودة إلى «التوريدور» لنقل رفاقي، كل اثنين على حدة، عبر المنحدرات وتوجيههم إلى نقطة اللقاء. ومع تقدمي نحو الشمال، تغلبت علي رغبة قوية في الاستكشاف. كنت أعلم أنني يمكنني تغطية معظم مناطق كاسباك والعودة إلى الشاطئ باستخدام أقل من كمية الوقود في خزاناتي. كان هناك أمل أيضًا في أن أجد بوين أو أحد أعضاء فريقه. وكنت مغرمًا بمساحة البحر الداخلي الشاسعة التي كانت تدعوني للتوغل فوق مياهها. على طرفي البحر، كانت هناك جزيرتان-واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال. لكنني اخترت أن أواصل مساري دون أن أغيره لفحص أي منهما عن كثب، مؤجلًا ذلك إلى وقت لاحق.

كشف الشاطئ الآخر للبحر عن شريط ضيق من الأرض بين المنحدرات والمياه، مقارنة بالجانب الغربي، لكنه كان منطقة تلالية أكثر انفتاحًا. كانت هناك أماكن رائعة للهبوط، وفي الأفق الشمالي، خُيّل لي أنني أرى قرية، لكن لم أكن متأكدًا تمامًا. بينما كنت أقترب من الأرض، لمحت عددًا من الأشكال البشرية تلاحق شخصًا يركض عبر المروج. وعندما اقتربت أكثر لألقي نظرة فاحصة عليهم، انتبهوا لصوت مراوح الطائرة ورفعوا أبصارهم للأعلى. توقفت المطاردة لحظة، ثم اندفعوا جميعًا مسرعين نحو أقرب غابة. في نفس اللحظة

تقريبًا، شعرت بشيء ضخم يقترب نحوي، وعندما رفعت عيني للأعلى، أدركت أن الزواحف الطائرة قد انتشرت حتى في هذا الجزء من كاسباك.

انقض المخلوق نحو جناح الطائرة الأيمن بسرعة رهيبة، حتى أنني لم أتمكن من الهروب إلا عبر انحدار حاد. كنت قريبًا جدًا من الأرض، وكان مناورتي محفوفة بالمخاطر، لكنني كنت على وشك أن أنجو منها عندما شعرت بأنني اقتربت بشكل مفرط من شجرة ضخمة. في محاولة لتجنب الشجرة وحركة الزاحف المجنح في الوقت ذاته، تحققت نتائج كارثية. لامس أحد الأجنحة فرعًا علويًا، فانحرفت الطائرة، ثم مالت، وفي لحظة فقدان السيطرة، اصطدمت بفروع الشجرة، حيث توقفت على ارتفاع أربعين قدمًا عن الأرض، محطمة وممزقة ، في صوت صفير مدو، اندفع الزاحف الضخم فوق الشجرة التي علقت فيها طائرتي، دائرًا مرتين من فوقي قبل أن ينقض مبتعدًا نحو الجنوب. كما كنت أتوقع، وكنت سأكتشف لاحقًا، فإن الغابات تمثل المكان الأكثر أمانًا لهذه الكائنات القاتلة، التي بسبب أجنحتها الواسعة ووزنها الثقيل، تجد نفسها غير قادرة على التحرك بين الأشجار، مثلما لا تجد الطائرات البحرية مكانًا لها في السماء.

تعلقت، لوهلة، بطائرتي المحطمة التي أصبحت الآن غير صالحة تمامًا للاستخدام، بينما كان عقلي يغرق في حالة من الارتباك بسبب الكارثة المروعة التي حلّت بي. كانت كل آمالي في إنقاذ بوان والآنسة لا رو تعتمد على هذه الطائرة، لكن في لحظات قليلة، دمرت مغامرتي الأنانية جميع آمالهم وآمالي. لم أكن قادرًا على تصور تأثير هذا على مستقبل البعثة الإنقاذية.

أثناء عودتنا إلى الديار، تمالكت نفسي، وحاولت أن أتناسى الكلمة التي تخنقني. «ديارا» عضضت على أسناني، لأنني كنت على يقين أنني لن أرى هذا المكان مجددًا، ولن أعود إليه أبدًا. وماذا عن بوان وفتاته؟ كان حكمًا قاسيًا أنني قد قررت مصيرهم أيضًا. لن يعرفوا أبدًا أن هناك من حاول إنقاذهم. وإذا كانوا قد نجوا بطريقة ما، فقد يجدون يوما ما بقايا هذه الطائرة العظيمة، متمزقة، عالقة في قبرها السماوي، وقد يتساءلون عما حدث، لكنهم لن يعرفوا الحقيقة. ولا يسعني إلا أن أشعر بنوع من الراحة لأنهم لن يعرفوا أن توم بيلينغز قد ختم مصيرهم بنزعة أنانية وجريمة لا تغتفر.

أرقني هذا الندم العبثي، ودفعني إلى حالة من اليأس، ولكنني أخيرًا استجمعت قواي، وحاولت طرد هذه الأفكار من عقلي، محاولًا التعامل مع الواقع كما هو، مستعدًا لبذل كل ما في وسعي لتحويل الهزيمة إلى نصر. كان جسدي مهزوزًا، وممتلئًا بجروح وكدمات تغطيه، لكنني اعتبرت نفسي محظوظًا للغاية لأنني نجوت بحياتي. الطائرة كانت معلقة في زاوية مائلة، ومن المستحيل أن أتمكن من الصعود منها إلى الشجرة، ثم إلى الأرض، دون أن أتعرض للخطر.

ساءت حالتي للغاية، فبيني وبين أصدقائي كان هناك بحر داخلي يبلغ عرضه نحو ستين ميلاً، ومسافة برية تقارب الثلاثمائة ميل تحيط بحافة البحر الشمالي. وكان في الطريق العديد من الأخطار التي اعترف بشجاعة أنها أفزعتني. رأيت ما يكفي في هذا اليوم ليؤكد لي أن بوان لم يكن يبالغ في وصف المخاطر. بل إنني أعتقد أنه قد أصبح معتادًا عليها لدرجة أنه اختصرها في روايته. بينما

كنت واقفًا هناك تحت تلك الشجرة، شجرة كان من المفترض أن تكون جزءًا من طبقة الفحم منذ عصور غابرة، ونظرت عبر بحرٍ يعج بحياة مرعبة، حياة كانت قد تحجرت منذ أن خلق الله آدم، لم أكن لأعطي أي أمل في رؤية أصدقائي أو العالم الخارجي مجددًا. ومع ذلك، أقسمت أنني سأقاتل طريقي عبر هذه الأرض البشعة بكل ما أستطيع من قوة.

كان لدي الكثير من الذخيرة: مسدس أوتوماتيكي وبندقية ثقيلة، والأخيرة كانت واحدة من عشرين قطعة أضيفت إلى تجهيزاتنا بناءً على وصف بوين للوحوش الضخمة التي تجتاح كاسباك. لكن أكبر المخاطر التي كنت أواجهها كانت تكمن في الزواحف البشعة التي، بسبب أعصابها الضعيفة التنظيم، تستمر في الهجوم لبضع دقائق بعد موتها، بفضل غريزتها المفترسة. لكن رغم ذلك، لم أركز كثيرًا على هذه المخاطر بقدر ما كنت أركز على الإحباط الذي أصابني فجأة، إذ كنت أشعر بحزن مرير لأنني ضيعت تركيزي عن الهدف الرئيسي لرحلتي وتحولت إلى استكشاف مبكر غير ذي جدوى. شعرت حينها أنه كان من المفترض أن أستبعد تمامًا من البحث عن بوان، فالمسافة البرية التي تبلغ ثلاثمائة ميل من أراضي كاسباك كانت تبدو لي مستحيلة، خاصة لشخص مثلي غير معتاد على حياة هذا المكان، وجاهل تمامًا بما ينتظرني. ومع ذلك، لم أستطع التخلي عن الأمل كليًا. كان واجبي واضحًا أمامي؛ يجب أن أواصل السير نحو الهدف ما دام في جسدي نفس. وهكذا، اتجهت إلى الشمال.

كانت البلاد التي عبرت من خلالها مذهلة، بل وكأنها ليست من هذا العالم. النباتات والأشجار والأزهار كانت غريبة، أكبر حجمًا

وأكثر إشراقًا، وأشكالها مذهلة لدرجة أنها بدت خارجة عن المألوف، وبعضها كان غريبًا إلى حد يفوق التصور. ومع ذلك، حتى تلك الغرابة كانت تضفي سحرًا إضافيًا على المشهد، كما أن الصبار العملاق أضفي جمالًا غريبًا على الأماكن القاحلة في صحراء موهافي. وفوق كل هذا، كانت الشمس تشرق ضخمة، مستديرة وحمراء، شمس هائلة تضيء عالمًا شاسعًا، وتشتت ضوءها الهواء الرطب لكاسباك، ذلك الهواء الدافئ والمشبع بالرطوبة الذي يثقل صدر هذه الأم العظيمة للحياة، أعظم حاضنة للطبيعة.

شعرت أن العالم من حولي ينبض بالحياة في كل اتجاه. الحركات كانت تتسرب بين قمم الأشجار، تتلوى بين سيقانها، وتتمدد على سطح البحر في دوائر تتداخل وتكبر، وبها نبضات تخرج من الأعماق؛ أسمعها في غابة كثيفة على يميني، همساتها تتصاعد وتنخفض في تدفقات متواصلة من الأصوات، تتخللها بين الحين والآخر صرخات مرعبة أو زئير مدوٍّ يهز الأرض من تحت قدمي. دائمًا كنت أعيش في هذا الشعور الغامض بأن أعينًا غير مرئية تراقبني، وأن خطوات صامتة تلاحق كل ما أقوم به. لست من الأشخاص الذين يسهل استفزازهم أو الذين يفرطون في الانفعال، لكن ثقل المسؤولية التي كنت أحملها جعلني أكثر يقظة وحذرًا مما كنت عليه. كنت ألتفت كثيرًا إلى اليمين واليسار، وأعود أدراجي بين الفينة والأخرى لأتأكد من أن أحدًا لا يفاجئني، بينما كنت أمسك ببندقيتي على أهبة الاستعداد. في إحدى اللحظات، أقسم أنني رأيت بين الكائنات الغامضة التي تمازجت أشكالها في ظلال الأشجار، شخصًا بشريًا يختبئ هنا وهناك، لكنني لم أتمكن من التأكد من ذلك.

غالبًا ما كنت أتجنب التوغل في أعماق الغابة المظلمة، مفضلا أن ألتف حولها كلما أمكنني ذلك. رغم ذلك، كانت هناك أوقات تضطرني فيها الظروف لعبور الأذرع التي تمتد منها نحو شاطئ البحر الداخلي. كان هناك شيء مشؤوم في الأصوات الفظيعة التي تتسلل من بين الأشجار، وفي اللمحات الغامضة للأشياء المتحركة في الظلال، مما يثير في نفسي شعورًا بأنني لا أواجه فقط تهديد الحيوانات الغريبة، بل وربما أيضًا رجالًا أشد غرابة. لذلك، كان من السهل عليّ أن أتنفس بحرية أكبر كلما عبرت إلى الأراضي المفتوحة.

سافرتُ شمالًا، ربما ساعةً كاملة، وما زلتُ تحت وطأة اليقين بأن شيئًا ما يراقبني. كان يتربص في صمت، مختبئًا بين الأشجار والشجيرات على يميني، وأحيانًا من خلفي. في كل مرة كنت أسمع الصوت نفسه، كأنما هو تحذير متكرر، حتى جاءني مرة أخرى، هذه المرة بقوة، فالتفتُّ على الفور. رأيتُ حيوانًا يركض بسرعة عبر الغابة باتجاهي. لم يكن يحاول إخفاء نفسه بعد الآن؛ كان يتسابق عبر الأدغال بعنفوان، وكأنما قد جمع شجاعته أخيرًا ليهاجمني. ولكن قبل أن يظهر في وضوح كامل، شعرتُ بشيء آخر يندفع وراءه في الظلال. أدركت حينها أن الهجوم كان معدًا ليكون مزدوجًا، من زوج من الكائنات المفترسة أو ربما من الرجال.

ثم، ظهر الكائن الأول من بين حزمة من السرخس، يندفع باتجاهي بخفة، بينما كنت على أهبة الاستعداد، بندقيتي على كتفي، في المكان الذي توقعتُ أن يظهر منه. لا شك أنني بدوت سخيفا، إذ ظهرت الدهشة على وجهي عندما خفضت سلاحي، وعيني تلتقط شكل الفتاة التي كانت تسرع نحوي. لكن لم يكن لدي الوقت الكافي

للدهشة؛ بينما كانت تقترب مني، لاحظت نظرتها المذعورة خلفها، وفي اللحظة نفسها، ظهر من الغابة، في نفس النقطة التي رأيتها فيها، أكبر قط رأيته في حياتي.

في البداية، ظننت أن الوحش كان نمرًا ذا أنياب سيفية، إذ بدا كأبشع المخلوقات التي يمكن تخيلها. ومع ذلك، لم يكن ذلك الكائن المروع من عصور ما قبل التاريخ، رغم أنه كان مرعبًا بما يكفي ليشبع خيال أكثر محبي الإثارة تطلبًا. صدح زئيره، مروعًا ومرعبًا، وعيناه المتوهجتان تلمعان فوق فكّيه المنفتحين، بينما كانت شفتاه ملتويتين في تجاعيد مرعبة تكشف عن فم مملوء بأسنان حادة. وعندما رآني، تراجع عن اندفاعه المتهور، وبدأ يقترب منا بحذر. في تلك اللحظة، أخذت الفتاة، التي كانت تحمل سكينًا طويلًا في يدها، مكانها بشجاعة على يساري، قليلاً خلفي. كانت قد نادت عليّ بلغة غريبة بينما كانت تسرع نحوي، ثم تحدثت مجددًا، لكن لم أتمكن من فهم كلماتها؛ كل ما شعرت به كان نبرتها الهادئة والمتزنة، خالية من أي أثر للذعر

أصبحت في مواجهةً مع هذا القط الضخم، الذي تبين لي الآن أنه فهد عملاق، انتظرت الوقت المناسب حتى أتمكن من تحديد مكان إطلاق النار الذي قد يحقق أفضل نتيجة، لأن التصويب على أي من الحيوانات المفترسة الكبيرة من الجبهة أمر صعب جدًا. كان لدي بعض الحظ في أن الوحش لم يكن ليهاجم بشكل مباشر؛ كانت رأسه منخفضة وظهره مكشوفًا؛ ولذلك، وعلى مسافة أربعين ياردة، أخذت دقة في تصويبي نحو عموده الفقري عند نقطة التقاء العنق والكتفين. لكن في نفس اللحظة، كما لو كان الكائن قد استشعر نيتي،

رفع رأسه وقفز في اتجاهي بسرعة.

كنت أعلم أن استهداف الجبهة سيكون عديم الفائدة، لذا قمت بسرعة بتغيير الهدف وسحبت الزناد، آملاً بأن تكون الرصاصة ذات الرأس الطري والشحنة الثقيلة من البارود كافية لإيقافه وتمنحني الوقت لإطلاق طلقة ثانية. ردًا على صوت البندقية، شعرت بالرضا وأنا أرى الوحش يقفز في الهواء، يدور دورة كاملة، لكنه نهض مجددًا على الفور تقريبًا. وفي اللحظة القصيرة التي استغرقها ليستعيد توازنه، كشف عن جانبه الأيسر بالكامل تجاهي، فأطلقت رصاصة ثانية اخترقت قلبه. سقط مجددًا للمرة الثانية، ثم نهض لمهاجمتي. إن الحيوية التي تتمتع بها هذه الكائنات في كاسباك هي من الميزات العجيبة لهذا العالم الغريب، وتشير إلى التنظيم العصبي الضعيف للحياة القديمة في العصر الحجري القديم، التي انقرضت منذ فترة طويلة في أماكن أخرى من العالم.

ثم أطلقت رصاصة ثالثة على الوحش من مسافة ثلاث خطوات، واعتقدت حينها أنني انتهيت، لكنه تدحرج وسقط عند قدمي ميتًا تمامًا. اكتشفت أن الرصاصة الثانية كانت قد مزقت قلبه تقريبًا بالكامل، ورغم ذلك استمر في مهاجمتي بشراسة، ولولا الطلقة الثالثة، لكان قتلني بلا شك قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة - أو كما يقول بوين تايلر بطريقة غريبة، قبل أن يدرك أنه ميت. وبعد أن بات واضحًا أن النمر قد أدرك مصيره، التفت نحو الفتاة، التي كانت تنظر إلي بإعجاب واضح مع لمحة من الرهبة، رغم أنني لا أنكر أن بندقيتي كانت تجذب اهتمامها بقدر ما جذبتها أنا. كانت بالفعل المخلوق الأكثر روعة الذي رأيته حتى الآن، وما أخفته ملابسها من

مفاتنها زادتها إبرازاً بفعالية. قطعة من الجلد الناعم غير المدبوغ كانت ملتصقة فوق كتفها الأيسر وتحت صدرها الأيمن، متدلية على جانبها الأيسر حتى وركها، وعلى الجانب الأيمن وضعت شريط معدني يطوق ساقها فوق الركبة حيث كان الطرف السفلي من الجلد مثبتاً.

حول خصرها كان هناك حزام جلدي فضفاض، وفي وسطه غمد السكين الخاص بها. وكان هناك سوار واحد بين كتفها الأيمن ومرفقها، وسلسلة من الأساور تغطي ساعدها الأيسر من المرفق حتى المعصم. عرفت لاحقاً أن هذه الأساور كانت تستخدم كدرع ضد هجمات السكاكين عندما ترفع ذراعها اليسرى لحماية الصدر أو الوجه. وشعرها الكثيف ثبت في مكانه بواسطة شريط معدني عريض يحمل زينة مثلثة كبيرة في منتصف جبهتها. كانت هذه الزينة تبدو كأنها قطعة ضخمة من الفيروز، بينما الباقي من كل زينتها مصنوعا من الذهب الخالص، ومحفورا بتصاميم دقيقة مزينة بقطع صغيرة من اللؤلؤ وأحجار صغيرة ملونة متنوعة. كان يتدلى من كتفها الأيسر ذيل فهد، بينما كانت قدماها منتعلتين بصنادل صغيرة متينة.

السكين كان سلاحها الوحيد، ذو نصل من الحديد، ومقبض ملفوف بالجلد، ومحمي بحاجز مكون من ثلاث شرائط مسطحة تنحني للخارج، وعلى قمة المقبض كانت توجد عقدة من الذهب. في الثواني القليلة التي وقفنا فيها متقابلين، استوعبت الكثير من تفاصيلها. كما لاحظت ميزة أخرى بارزة في مظهرها: كانت شديدة الاتساخ! كان وجهها وأطرافها وثيابها مخططة بالطين والعرق، ورغم

ذلك، شعرت بأنني لم أرَ قط مخلوقًا بهذه الروعة والجمال. قوامها يفوق الوصف، وكذلك وجهها. لو كنت من هؤلاء الكتاب، ربما كنت سأقول إن ملامحها يونانية، لكنني لست كاتبًا ولا شاعرًا، لذا أرى أنني أستطيع إنصافها بشكل أكبر بوصفي لها بأنها تجمع بين أروع الملامح التي يمكن أن تُرى في وجه الفتاة الأمريكية النموذجية، وليس ذلك المظهر الباهت الشبيه بخراف الآلهة اليونانية. لا، حتى الأوساخ لم تستطع إخفاء هذه الحقيقة؛ لقد كانت جميلة بلا مقارنة.

بينما كنا واقفين نتبادل النظرات، ارتسمت على وجهها ابتسامة بطيئة، تفترُّ عنها شفتاها المتناسقتان، كاشفة عن صف من الأسنان البيضاء القوية.

قالت بصوت متسائل: «جالو؟»

وتذكّرًا أنني قرأت في مخطوطة بوين أن «جالو» يبدو أنها تشير إلى نوع أعلى من البشر، أجبت بالإشارة إلى نفسي وتكرار الكلمة. ثم بدأت بطرح أسئلة متتالية، إن جاز لي الحكم من نبرة صوتها، إذ إنني بالتأكيد لم أفهم كلمة مما قالت. كانت الفتاة تراقب الغابة باستمرار، وفي النهاية لمست ذراعي وأشارت نحوها.

عندما التفت، رأيت كائنًا مشعرًا يشبه الإنسان يقف ويراقبنا، ثم خرج كائن آخر وآخر من بين الأشجار وانضموا إلى القائد حتى بلغ عددهم عشرين تقريبًا. كانوا عراة تمامًا، وأجسادهم مغطاة بالشعر، ورغم أنهم وقفوا على أقدامهم دون أن تلمس أيديهم الأرض، كان مظهرهم يشبه القردة إلى حد كبير، إذ انحنوا للأمام وكانت أذرعهم طويلة جدًا وملامحهم شبيهة بالقردة. لم يكونوا جميلين للنظر

بعيونهم المتقاربة وأنوفهم المسطحة وشفاههم العليا الطويلة وأنيابهم الصفراء البارزة.

قالت الفتاة: «ألوس!»

كنت قد قرأت مغامرات بوين مرارًا لدرجة أنني كنت أعرفها تقريبًا عن ظهر قلب، وهكذا عرفت أنني أمام آخر بقايا ذلك الجنس البشري القديم، ألوس وهم من فترة منسية، من عصر الإنسان الغير ناطق من العصور القديمة. صاحت الفتاة: «كازورا!»، وفي ذات اللحظة اندفع الـ«ألوس» نحونا، يصدرون أصواتًا غريبة من التذمر والنباح، وهم يبرزون أنيابهم وهم يتقدمون نحونا. لم يكونوا مسلحين سوى بأسلحة الطبيعة، عضلاتهم القوية وأنيابهم العملاقة؛ ومع ذلك كنت أعرف أن هذه الأسلحة كافية تمامًا لتغلب علينا لو لم يكن لدينا ما ندافع به عن أنفسنا، لذا أخرجت مسدسي وأطلقت النار على القائد. سقط على الأرض كالحجر، وهرب الآخرون. ومرة أخرى، ابتسمت الفتاة ابتسامتها البطيئة واقتربت ولمست ماسورة مسدسي، وعندما فعلت ذلك، لامست أصابعها أصابعي، وسرت قشعريرة مفاجئة في جسدي، وأرجعت ذلك إلى أنني لم أرَ امرأة منذ زمن طويل، من أي نوع أو شكل.

قالت لي شيئًا بنغمتها العذبة المنخفضة؛ لكنني لم أفهمها، ثم أشارت نحو الشمال وبدأت في التحرك. تبعتها، إذ كان طريقي أيضًا نحو الشمال؛ ولكن حتى لو كان في اتجاه الجنوب لكنت تبعتها، فقد كنت في حاجة ماسة إلى رفقة بشرية في هذا العالم المليء بالوحوش والزواحف وشبه البشر. سرنا معًا، والفتاة تتحدث كثيرًا

وتبدو مستغربة من عدم قدرتي على فهمها. كانت ضحكتها الفضية تتردد بمرح حينما كنت أحاول التحدث إليها بدوري، وكأن لغتي هي أغرب شيء سمعته على الإطلاق. وغالبًا وبعد محاولات فاشلة في جعلي أفهمها، مدت كفها نحوي قائلة «جالو!» ثم لمست صدري أو ذراعي وتصرخ، «ألوس، ألوس!» كنت أعرف ما تعنيه، فقد تعلمت من رواية بوين الإشارة السلبية والكلمتين اللتين تكررهما. كانت تقصد أنني لست «جالو» كما زعمت، بل «ألوس»، أو إنسانًا بلا نطق. لكن في كل مرة تقول فيها ذلك تضحك مرة أخرى، ضحكتها كانت معدية لدرجة أنني كنت أنضم إليها في الضحك.

وكان من الطبيعي أيضًا أن تكون متعجبة من عدم قدرتي على فهمها أو جعلها تفهمني، إذ إن من أول رجل العصا، وهو أدنى أنواع البشر في كاسباك الذين يمتلكون القدرة على الكلام، إلى السلالة الذهبية من الجالو، كانت لغات القبائل المختلفة متطابقة، مع اختلافات طفيفة وفقًا للتطور المتصاعد. الفتاة، كونها جالو، يمكنها فهم أحد الـ»بو-لو» وجعل نفسها مفهومة له، أو لرجل الفأس أو الرماح أو الرماة. وحدهم الهولو، أو القردة، والألوس وأنا، كانوا الكائنات الوحيدة التي تشبه البشر والتي لا يمكنها التواصل معها؛ ومع ذلك، كان من الواضح أن ذكاءها أخبرها بأنني لست من الهولو ولا من الألوس، أي لست قردًا بشريًا ولا إنسانًا غير ناطق. ومع ذلك، لم تيأس، بل شرعت في تعليمي لغتها؛ ولولا أنني كنت قلقًا للغاية بشأن مصير بوين ورفاقي في سفينة «التوريادور»، لكنت قد تمنيت أن يطول هذا الوقت من التعليم.

لم أكن يومًا مما يُطلق عليهم «زير نساء»، رغم أنني أستمتع

بصحبتهن كثيرًا، وخلال أيام الجامعة وما بعدها كوّنت صداقات عديدة بين الجنس الآخر. أعتقد أنني أروق لنوع معين من الفتيات لأنني لا أحاول التقرب إليهن عاطفيًا؛ أترك هذا للآخرين الذين يجيدونه أكثر مني، وأستمتع بصحبة الفتيات بطرق تبدو لي أكثر عقلانية كالرقص، ولعب الجولف، والإبحار، وركوب الخيل، والتنس وما شابه ذلك. لكن في صحبة هذه الفتاة الصغيرة شبه العارية، وجدت متعة جديدة تمامًا تختلف عن أي متعة سبق لي أن اختبرتها. عندما تلامسني، أشعر برعشة لم أشعر بها من قبل في تواصلي مع أي امرأة أخرى. لم أتمكن من فهم الأمر تمامًا، لأنني على دراية كافية لأعرف أن هذا عارض من أعراض الحب، وبالتأكيد لم أكن أحب هذه الهمجية الصغيرة القذرة ذات الأظافر المكسورة والمهملة والبشرة المغطاة بالطين واللون الأخضر الناتج عن سحق النباتات لدرجة أن لون بشرتها الأصلي كان من الصعب تمييزه. لكن إن كانت مظهرها الخارجي خشنًا، فإن عينيها الصافيتين، وأسنانها البيضاء القوية المتناسقة، وضحكتها الفضية، وسلوكها الملكي، عكست كلها دقةً داخلية لم يستطع الوحل إخفاءها تمامًا.

انخفضت الشمس في السماء عندما وصلنا إلى نهر صغير يصب في خليج كبير عند أسفل منحدرات منخفضة. رحلتنا حتى الآن مليئة بالمخاطر المستمرة، كما هو حال كل رحلة في هذه الأرض المرعبة. لم أشأ أن أثقل عليك برواية السلسلة المتعبة من الهجمات التي شنتها علينا الكائنات العديدة التي كانت تعبر طريقنا باستمرار أو تلاحقنا عمدًا. كنا دائمًا في حالة يقظة؛ ففي هذا المكان، كما يُقال، فإن الحذر الدائم هو حقًا ثمن الحياة.

تمكنت من إحراز تقدم طفيف في تعلم لغتها، فأصبحت أعرف أسماء العديد من الحيوانات والزواحف بالأسماء الكاسباكية، وكذلك أسماء الأشجار والسراخس والأعشاب. عرفت كلمات البحر والنهر والجرف، والسماء والشمس والسحاب. نعم، كنت أحرز تقدمًا جيدًا، وآنذاك خطر لي أنني لا أعرف اسم رفيقتي؛ لذا أشرت إلى نفسي وقلت: «توم»، ثم أشرت إليها ورفعت حاجبي في إشارة استفهام. أدخلت الفتاة أصابعها في شعرها الكثيف ونظرت بحيرة. كررت الإشارة مرات عدة.

أخيرًا قالت بصوتها العذب والواضح: «توم!»

لم أفكر يومًا كثيرًا في اسمي؛ لكن عندما نطقته، بدا لي لأول مرة في حياتي اسمًا جميلًا للغاية، ثم أضاء وجهها فجأة وضربت صدرها بيدها وقالت: «آجور!»

كررت: «آجور!» فضحكت وصفقت براحتيها.

حسنًا، الآن نعرف أسماء بعضنا، وهذا كان مرضيًا إلى حد ما. أعجبني اسمها «آجور!» ويبدو أنه أعجبها اسمي أيضًا، لأنها كررته. وصلنا إلى المنحدرات بجانب النهر الصغير حيث يصب في الخليج، وخلفه البحر الداخلي الكبير. كانت المنحدرات متآكلة وقديمة، وفي أحد الأماكن كان هناك تجويف عميق يمتد تحت الحجر المعلق لعدة أقدام، ما يوحي بوجود ملجأ ليلي. كانت هناك صخور متناثرة يمكنني استخدامها لبناء حاجز عبر مدخل الكهف، فتوقفت هناك وأشرت إلى المكان لأجور، محاولًا أن أجعلها تفهم أننا سنقضي الليلة هناك.

ما إن استوعبت قصدي، حتى أومأت بالإيجاب بإيماءة كاسباكية، ثم لمست بندقيتي وأشارت لي أن أتبعها إلى النهر. عند الضفة توقفت، وأزالت حزامها وخنجرها، وأسقطتهما على الأرض بجانبها. فكّت الحافة السفلية من ثوبها عن الحلقة المعدنية المثبتة بساقها، ثم نزعت الثوب عن كتفها الأيسر وتركتها تسقط حول قدميها على الأرض. تم الأمر ببساطة وسرعة وطبيعية لدرجة أنني وجدت نفسي أتنفس بصعوبة، كسمكة خرجت من الماء. ثم التفتت إلي بابتسامة قبل أن تغوص في النهر حيث بدأت تستحم بينما كنت أقف حارسًا عليها. قضت خمس إلى عشر دقائق تتلاعب بالماء، وعندما خرجت، كانت بشرتها اللامعة ناعمة وبيضاء وجميلة. وبدون وسائل لتجفيف نفسها، تجاهلت ما كان يبدو لي أمرًا ضروريًا، وفي لحظة كانت ترتدي ملابسها البسيطة والجذابة مرة أخرى.

كانت الشمس على وشك المغيب، وشعرت بجوع شديد، فقدتها إلى مرج منخفض يقع على بُعد حوالي ربع ميل، حيث كنا قد شاهدنا الغزلان وخيولًا صغيرة قبل قليل. هناك قمت بإسقاط غزال صغير، ما جعل بقية القطيع يهرب مذعورًا باتجاه الغابة، حيث استقبلتهم زئير الوحوش المفترسة التي انتهزت فرصة ذعرهم لتنقض عليهم. بسكيني الخاص بالصيد، قمت بقطع جزء من فخذ الغزال، ثم عدنا إلى المخيم. هناك جمعت كمية كبيرة من الحطب من الأشجار الساقطة، وكانت آجور تساعدني، لكن قبل أن أشعل النار، جمعت أيضًا كمية كافية من الصخور الفضفاضة لبناء حاجز لمواجهة مخاطر الليل القادمة.

لن أنسى أبدًا التعبير على وجه آجور عندما رأتني أشعل عود

الثقاب وأضيء الخشب. كان تعبيرًا يعكس الدهشة كما لو أنها شاهدت قوى إلهية تعمل بشكل غامض. كان من الواضح أن آجور لم تكن على دراية بطرق إشعال النار الحديثة. لقد اعتقدت أن بندقيتي ومسدسي أشياء مذهلة، لكن هذه القطع الصغيرة من الخشب التي أشعلت النار في الموقد بدت لها معجزات حقيقية.

بينما كانت اللحم يشوى فوق النار، حاولت أنا وآجور مجددًا التحدث؛ لكن رغم المحاولات، لم تثمر المحادثة كثيرًا. عندها بدأت آجور بجدية في مهمة تعليمي لغتها. بدأت، كما علمت لاحقًا، بأبسط أشكال الكلام المعروف في كاسباك، وربما في العالم، وهو الذي يستخدمه شعب «بو-لو». لم أجد الأمر صعبًا، ورغم أنها كانت تواجه عائقًا كبيرًا في عدم قدرتها على التحدث بلغتي، فقد أدت المهمة بشكل رائع وأظهرت أنها تملك دهاءً وذكاءً عاليًا.

بعد أن تناولنا الطعام، أضفت المزيد من الحطب حتى أتمكن من إطعام النار أمام مدخل الحاجز، معتقدًا أن هذا سيكون حماية جيدة ضد الحيوانات المفترسة بقدر ما نستطيع. ثم جلست مع آجور أمام النار، وبدأ الدرس، بينما كانت الأصوات الغريبة والمخيفة تتصاعد حولنا في ليل كاسباك، الأنين والسعال والزئير الصاخب للنمور والفهود والأسود، ونباح وعواء الذئاب وابن آوى والهيايندونات، والصيحات الحادة للفريسة المذعورة وهسهسة الزواحف الضخمة؛ وحده صوت الإنسان كان غائبًا.

لكن رغم أن هذا الجوقة المرعبة كانت ترتفع وتنخفض من بعيد وقريب في جميع الاتجاهات، وتصل أحيانًا إلى درجة من الصخب

تجعل الأرض تهتز تحتنا، إلا أنني كنت مشغولًا للغاية في درسي وفي معلمتي لدرجة أنني كثيرًا ما تجاهلت ما كان يملأني من رهبة من وقت لآخر. وجه الفتاة الجميلة وصوتها كانا يشغلان كل إدراكي، وهي تميل بحماس نحوي في محاولة لشرح معنى كلمة ما أو تصحيح نطقي لكلمة أخرى. كانت أضواء النار تلمع على ملامحها المتوهجة وعينيها اللامعتين، وتبرز حركات ذراعيها ويديها الرشيقة، وتتألق من أسنانها البيضاء وزينتها الذهبية، وتبرز على نعومة بشرتها المتينة. أخشى أنني كنت في كثير من الأحيان مشغولًا بإعجابي بهذا الكائن الجميل أكثر من رغبتي في اكتساب المعرفة؛ لكن ومع ذلك، تعلمت الكثير في تلك الليلة، رغم أن جزءًا مما تعلمته لم يكن له علاقة بأي لغة جديدة. بدا أن آجور مصممة على أن أتحدث اللغة الكاسباكية في أسرع وقت ممكن، واعتقدت أنني رأيت في رغبتها تلك جانبًا من الفضول الأنثوي الذي انتقل عبر العصور منذ أول امرأة في العالم.

كانت آجور ترغب في أن أتكلم لغتها كي تشبع فضولها الذي كان يملؤها إلى حد الانفجار؛ كنت واثقًا من ذلك. كانت مثل علامة استفهام متحركة صغيرة، مليئة بالأسئلة التي لن تجد إجابة إلا إذا تعلمت لغتها. كانت عيناها تتألقان بالإثارة، ويدها تتحرك بتعابير عفوية، ولسانها يسابق الزمن؛ لكن كل ذلك كان بلا جدوى. كنت أستطيع أن أقول «رجل» و«شجرة» و«جرف» و«أسد» وبعض الكلمات الأخرى بالكاسباكية، لكن هذا المفردات كانت محدودة جدًا ولم تساعدنا في إجراء محادثة عامة، مما جعل آجور تنفعل لدرجة أنها كانت تقبض بيديها الصغيرتين وتضربني على صدري بكل قوتها،

ثم تنهار ضاحكة عندما تدرك طرافة الموقف.

حاولت تعليمي بعض الأفعال عبر القيام بالحركات بنفسها وتكرار الكلمة المناسبة. كنا منهمكين للغاية، لدرجة أننا لم نكن منتبهين لما يحدث خارج الكهف، إلى أن توقفت آجور فجأة وصرخت «كازورا» كانت قد علمتني أن كلمة «جو» تعني «توقف»، لذا عندما صرخت «كازور» وتوقفت في نفس الوقت، ظننت للحظة أن هذا جزء من الدرس، فقد نسيت للحظة أن «كازور» تعني «احترس». لذلك، كررت الكلمة بعدها؛ ولكن عندما رأيت التعبير في عينيها ووجهتها نحو مدخل الكهف، استدرت سريعًا لأرى وجهًا مرعبًا عند الفتحة الصغيرة المؤدية إلى الخارج. كان ذلك الوجه المخيف هو وجه دب ضخم، يزأر ويكشر عن أنيابه.

لقد اصطدت من قبل الدببة الرمادية في جبال أريزونا البيضاء، واعتقدت أنها من أكبر وأشرس الحيوانات، لكن من مظهر رأس هذا المخلوق الرهيب، بدا لي أن أكبر دب رمادي رأيته من قبل سيبدو صغيرًا بالمقارنة، بحجم كلب نيوفاوندلاند. كانت النار داخل الكهف، والدخان يتصاعد من خلال الفتحات بين الصخور التي كنت قد وضعتها بطريقة تجعلها تتقوس باتجاه الجرف من الأعلى. أما الفتحة التي كنا سنخرج منها، فقد كانت محاطة بقطع كبيرة من الصخور، لكنها لم تغلق تمامًا، ومع ذلك لم يكن بإمكان أي حيوان كبير الدخول من خلالها. كنت أعتمد بشكل أساسي على النار، معتقدًا أن الحيوانات المفترسة الليلية الخطيرة لن تقترب من اللهب. لكنني كنت مخطئًا، فقد كان الدب واقفًا على بعد قدم من النار، التي كانت منخفضة الآن بسبب انشغالي بالدرس مع آجور، ما جعلني أهمل

تزويدها بالحطب.

سحبت آجور سكينها الصغير غير الفعّال وأشارت إلى بندقيتي. وفي نفس الوقت تحدثت بصوت ثابت خالٍ تمامًا من العصبية أو أي دليل على الخوف أو الذعر. كنت أعلم أنها تحثني على إطلاق النار على الوحش، لكنني لم أرغب في القيام بذلك إلا كملاذ أخير، إذ كنت متأكدًا أن رصاصاتي الثقيلة لن تؤدي إلا إلى زيادة غضبه، مما قد يجعله يحاول اقتحام الكهف. بدلاً من إطلاق النار، وضعت المزيد من الحطب على النار، ومع تصاعد الدخان واللهب في وجه الدب، تراجع إلى الخلف وهو يزأر بشكل مخيف؛ لكنني لا زلت أرى نقطتين مضيئتين قبيحتين تتوهجان في الظلام الخارجي وأسمع زئيره المدوي في الخارج. لمدة طويلة، وقف الكائن هناك يراقب مدخل ملاذنا الضعيف بينما كنت أستنزف أفكاري في محاولة يائسة للتفكير في خطة للدفاع أو الهروب. كنت أعلم جيدًا أنه إذا قرر الدب محاولة الوصول إلينا بشكل حازم، فإن الصخور التي وضعتها كحاجز سيسقط حول كتفيه العملاقتين مثل بيت من ورق، وكان سيمشي مباشرة نحونا.

أجور، التي كانت تملك معرفة أقل بفعالية الأسلحة النارية مني، وبالتالي كانت أكثر ثقة بها، طلبت مني أن أطلق النار على الوحش؛ لكنني كنت أعلم أن فرصتي في إيقافه بإطلاق رصاصة واحدة كانت ضئيلة للغاية، في حين أن احتمالية أن أستفزه كانت حقيقية ووشيكة؛ لذا انتظرت ما بدا وكأنه أبدية، وأنا أراقب تلك النقطتين الشيطانيتين من النار التي كانت تحدق بنا بعيون مملوءة بالشر، وأستمع إلى ذلك الزئير المتزايد التي كانت تبدو وكأنها تتدفق من

جوف الأرض، وتهتز الصخور التي كنا نختبئ تحتها، حتى رأيت أخيرًا أن الوحش كان يقترب مجددًا من الفتحة. لم ينفعني شيء أنني أكومت الحطب عاليًا في النار حتى كدنا نقترب من التحميص؛ جاء ذلك المحرك العظيم للتدمير حتى عاد وجهه البشع يفتح فمه المملوء بالأنياب مباشرة عند مدخل الحاجز. توقف هكذا لحظة، ثم سحب الرأس. تنفست الصعداء، فقد غير الوحش نيته وواصل سيره بحثًا عن فريسة أخرى أسهل وأسرع في الحصول عليها؛ كانت النار أكثر من تحمله.

لكن فرحتي لم تدم طويلًا، وهبط قلبي مرة أخرى عندما رأيت بعد لحظة أن كفًا ضخمة قد امتدت إلى الفتحة، كفًا بحجم كبير مثل صحن الطبخ. بلطف شديد، كانت الكف تداعب الصخرة الكبيرة التي كانت تغلق المدخل جزئيًا، تدفعها وتجرها، ثم سحبتها ببطء إلى الخارج وإلى جانب. عاد الرأس مرة أخرى، وهذه المرة دخل إلى الكهف أبعد من قبل؛ لكن الكتفين العظيمين لم يعبرا الفتحة بعد. اقتربت أجور مني حتى لمس كتفها جانبي، وفكرت أنني شعرت برجفة خفيفة تسري عبر جسدها، لكنها لم تُظهر أي مؤشر على الخوف. لا إراديًا، ألقيت ذراعي اليسرى حولها وجذبتها إليّ لحظة، كان ذلك فعلًا للاطمئنان أكثر منه عناقًا، رغم أنني يجب أن أعترف بأنني شعرت مرة أخرى، وحتى في وجه الموت، بحماسة من تلامسها؛ ثم أطلقتها وألقيت بندقيتي على كتفي، فقد وصلت أخيرًا إلى القناعة بأن لا شيء آخر يمكن أن يتحقق بالانتظار. كان أملي الوحيد هو أن أطلق أكبر عدد من الطلقات على المخلوق قبل أن يهاجمني. لقد مزق بالفعل صخرة ثانية وكان في طور دفع جسده

الضخم من خلال الفتحة التي صنعها الآن.

«فأخذت الآن الهدف بدقة بين عينيه؛ أغلقت أصابعي اليمنى بإحكام وبانتظام على قاعدة السلاح، وسحبت إصبع الزناد إلى الوراء بحركة عضلية من اليد. لم يكن من الممكن أن تخطئ الرصاصة هدفها! حبست أنفاسي لئلا يحرف التنفس فوهة البندقية بمقدار شعرة. كنت ثابتًا وهادئًا كما لم أكن من قبل في ميدان الرماية، وكان لدي الوعي التام بأنني سأصيب الهدف بدقة، كنت أعلم أنني لا أستطيع أن أخطئ. وبينما اندفع الدب نحوَني، سقطت المطرقة - عبثًا - على خرطوشة غير كاملة.

تقريبًا في نفس اللحظة، سمعت من الخارج زئيرًا شيطانيًا تمامًا؛ زأر الدب سلسلة من الزئير التي كانت تفوق في حجمها وشراستها أي شيء كان قد أطلقه من قبل، وفي نفس الوقت تراجع بسرعة عن الكهف. للحظة، لم أستطع فهم ما حدث ليتسبب في هذا التراجع المفاجئ بينما كانت فريسته تقريبًا بين مخالبه. كانت فكرة أن صوت المطرقة غير المؤذي قد أخافه سخيفة للغاية لكي أعتقد بها. ومع ذلك، لم ننتظر طويلًا قبل أن نتمكن على الأقل من تخمين بسبب التحول، فقد وصلتنا من الخارج زئيرات وزئير وأصوات أجسام ضخمة تتقلب حتى اهتزت الأرض. لقد تم الهجوم على الدب من الخلف من قبل وحش آخر عظيم، وكان الوحشان الآن في صراع هائل من أجل السيطرة. مع فترات راحة قصيرة، حيث كنا نسمع تنفس المتقاتلين المتعب، استمر المعركة لمدة ساعة تقريبًا حتى أصبحت أصوات القتال تدريجيًا أقل ثم توقفت تمامًا. باقتراح من أجور، الذي تم بالإشارات وبعض الكلمات التي كنا نعرفها معًا، نقلت

النار مباشرة إلى مدخل الكهف حتى يتعين على الوحش أن يمر مباشرة من خلاله.

نقلنا النار لتكون جوارنا، ثم جلسنا وانتظرنا منتصر المعركة ليأتي ويأخذ مكافأته؛ ولكن رغم أننا جلسنا لفترة طويلة وأعيننا ملتصقة بالفتحة، لم نرَ أي علامة على وجود وحش. أخيرًا، أومأت إلى أجور أن تستلقي، لأنني كنت أعلم أنها بحاجة إلى النوم، وجلستُ في موقف الحراسة حتى اقترب الفجر، حين استيقظت الفتاة وأصرت على أن آخذ قسطًا من الراحة؛ ولم تمانع في ذلك، بل سحبتني وهي تهددني بسكينها ضاحكة.

الفصل الثالث

عندما استيقظت، كان قد حل النهار، ووجدت أجور جالسة أمام سرير رائع من الجمر، تشوي قطعة كبيرة من لحم الظبي. صدقني، كانت رؤية اليوم الجديد ورائحة اللحم المشوي اللذيذة مليئة بالسعادة المتجددة والأمل الذي كان قد انمحى تقريبًا بفعل تجربة الليلة السابقة؛ وربما كان شكل الفتاة النحيلة ذات الوجه المشرق أيضًا علاجًا قويًا. نظرت إليّ مبتسمة، مظهرة تلك الأسنان المثالية، وعلامات السعادة واضحة على وجهها، كانت أجمل صورة رأيتها في حياتي. أذكر أنه في تلك اللحظة شعرت لأول مرة بالندم لأنها مجرد فتاة همجية غير متعلمة، وتحتل مكانًا بعيدًا عني في سلم التطور.

أول تصرف لها كان أن دعتني لمتابعتها إلى الخارج، وهناك أشارت إلى تفسير إنقاذنا من الدب، وجدنا نمر ضخم، فروه ولحمه ممزقان إلى شرائح، ملقى ميتًا على بعد خطوات قليلة من كهفنا، وبجانبه، ممزقًا وأحشاؤه مكشوفة، ووجدنا جثة دب كهفي ضخم. أن يُنقذ المرء من قبل نمر سيفي، وفي القرن العشرين أيضًا، كانت تجربة فريدة من نوعها على أقل تقدير؛ لكنها قد حدثت وكان لديّ الدليل على ذلك أمام عيني.

إن الكائنات المفترسة العظيمة في كاسباك هائلة لدرجة أنها يجب أن تتغذى باستمرار لدعم عضلاتها العملاقة، والنتيجة هي أنها تأكل لحم أي كائن آخر وتهاجم أي شيء يدخل في نطاق رؤيتها، بغض النظر عن قوة الفريسة. من الملاحظات اللاحقة، وأذكر هذا لأنه يستحق اهتمام علماء الحفريات وعلماء الطبيعة، توصلت

إلى استنتاج مفاده أن مثل هذه الكائنات مثل دب الكهوف، وأسد الكهوف، والنمر، بالإضافة إلى الزواحف المفترسة الأكبر حجمًا، عادةً ما تصطاد مرتين في اليوم، مرة في الصباح ومرة بعد الليل. ثم يلتهمون الجثة بالكامل، وبعدها ينامون لبضع ساعات. لحسن الحظ، أعدادهم قليلة نسبيًا؛ وإلا لما كان هناك أي حياة أخرى في كاسباك. إن جوعهم الشديد هو ما يحافظ على أعدادهم ضمن حدود تسمح لبقية أشكال الحياة بالاستمرار، لأنه حتى في موسم التزاوج، غالبًا ما يلتفت الذكور العظام ضد رفقائهم ويأكلونهم، في حين أن الذكور والإناث على حد سواء يأكلون صغارهم أحيانًا. كيف تمكنت الأعراق البشرية وشبه البشرية من البقاء طوال العصور التي لابد أنها كانت موجودة فيها هنا، فهذا يتجاوز فهمي تمامًا.

بعد الإفطار، بدأنا أنا وأجور مجددًا رحلتنا شمالًا. لم نبتعد كثيرًا عندما هاجمنا عدد من الكائنات الشبيهة بالقردة، مسلحة بالعصي. بدا أنهم أعلى قليلاً في السلم من الآلوس. أخبرتني أجور أنهم من «بو-لو»، أو رجال العصي. قتلت طلقة من مسدس واحد واحدًا منهم وشتت البقية؛ لكننا كنا مهددون منهم عدة مرات لاحقًا طوال اليوم، حتى تركنا بلادهم ودخلنا أرض «ستو-لو»، أو رجال الفؤوس. كان هؤلاء الناس أقل شعرًا وأكثر شبهًا بالبشر؛ ولم يظهروا كذلك قلقًا لتدميرنا. بل كانوا فضوليين، وتبعونا لمسافة طويلة وهم يفحصوننا عن كثب. كانوا ينادون علينا، وأجابتهم أجور؛ لكن ردودها لم تكن مرضية لهم، فبدأوا تدريجيًا في التهديد، وأعتقد أنهم كانوا يستعدون للهجوم علينا عندما خرج غزال صغير كان يختبئ في بعض الشجيرات المنخفضة فجأة وكسر الغطاء واندفع أمامنا. كنا

بحاجة إلى اللحم، لأن الوقت كان قريبًا من الساعة الواحدة وكنت جائعًا؛ فأخرجت مسدسي وبطلقة واحدة أسقطت المخلوق في مكانه. كان تأثير ذلك على «بو-لو» كهربائيًا. على الفور، تخلوا عن أي أفكار بشأن الحرب، وبدلوا اتجاههم، وركضوا إلى الغابة التي كانت على حافة طريقنا.

قضينا تلك الليلة بجانب مجرى صغير في أرض «ستو-لو». وجدنا كهفًا صغيرًا في ضفة صخرية، مخفيًا بحيث لا يمكن للحيوان المفترس أن يجد طريقه إليه إلا عن طريق الصدفة، وبعد أن تناولنا من لحم الغزال وبعض الفاكهة التي جمعتها أجور، تسللنا إلى تلك الفجوة الصغيرة، وبالعصي والحجارة التي جمعتها خصيصًا لذلك الغرض، بنيت حاجزًا قويًا داخل المدخل. لم يكن بإمكان أي شيء الوصول إلينا دون السباحة والعبور عبر الجدول، وشعرت بالأمان التام من أي هجوم محتمل. كانت أماكننا ضيقة للغاية. السقف منخفض لدرجة أننا لم نتمكن من الوقوف، والأرض ضيقة لدرجة أننا بالكاد تمكنا من التكدس فيها معًا؛ ولكننا كنا متعبين للغاية، لذلك استمتعنا بما لدينا. وكان شعور الأمان كبيرًا لدرجة أنني متأكد من أنني غفوت فورًا عندما مددت نفسي بجانب أجور.

خلال الأيام الثلاثة التالية، كانت تقدمنا بطيئًا لدرجة الإحباط. أشك في أننا قطعنا عشرة أميال طوال الأيام الثلاثة. كانت الأرض بربرية لدرجة أننا اضطررنا لقضاء ساعات مختبئين من بعض الوحوش الكبيرة التي كانت تهددنا باستمرار. كان هناك عدد أقل من الزواحف؛ لكن كمية الحيوانات المفترسة كانت قد زادت، والزواحف التي رأيناها كانت عملاقة. لا أستطيع نسيان أحد العينات الضخمة

التي صادفناها وهي ترعى على نباتات الماء على حافة البحر الكبير. كان ارتفاعها أكثر من اثني عشر قدمًا عند المؤخرة، أعلى نقطة فيها، ومع ذيلها وعنقها الطويلين بشكل هائل كان طولها بين خمسة وسبعين ومئة قدم. كان رأسها صغيرًا بشكل غريب؛ وكان جسدها غير مدرع، ولكن حجمها الهائل أعطاها مظهرًا مخيفًا للغاية. من خلال تجربتي في حياة كاسباك، كنت أعتقد أن المخلوق العملاق كان سيهاجمنا بمجرد رؤيتنا، لذا رفعت بندقيتي وفي نفس الوقت ابتعدت نحو بعض الشجيرات التي توفر لي التغطية. لكن أجور ضحكت فقط، وأخذت عصًا، وركضت نحو المخلوق الضخم وهي تصرخ. رفع رأسها الصغير عاليًا على عنقها الطويل بينما كان الحيوان ينظر بحماقة هنا وهناك باحثًا عن مصدر الإزعاج. أخيرًا، اكتشفت عيونه أجور الصغيرة، ثم رمت العصا على رأسه الصغير. بهتاف بدا أشبه بعواء خروف، تراجع المخلوق الهائل إلى الماء وغطس بسرعة.

بينما استعدت ببطء دراساتي الجامعية وقراءاتي حول علم الحفريات في كتب بوين، أدركت أنني كنت قد نظرت إلى شيء ليس سوى «دبلودوكس» من العصر الجوراسي العلوي؛ لكن كم كان مختلفًا تمامًا الكائن الحي الحقيقي عن إعادة التكوين البدائية لهاتشر وهولاند! كنت أعتقد أن الدبلودوكس حيوانًا بريًا، ولكن يبدو أنه شبه مائي. لقد رأيت عدة أمثلة بعد لقائي الأول، وفي كل حالة كان المخلوق يلجأ إلى البحر للاختباء فور تعرضه للإزعاج. باستثناء ذيله الضخم، لا يملك هذا الكائن سلاحًا للدفاع؛ ولكن بهذا المرفق يمكنه أن يوجه ضربة عنيفة تكفي لإسقاط حتى دب الكهوف العملاق، مصابًا ومكسورًا. إنه حيوان غبي، بسيط، وودي، واحد من

القليلين في كاسباك الذين يمكن أن تنطبق عليهم هذه الأوصاف.

على مدى ثلاث ليالٍ، نمنا بين الأشجار، حيث لم نجد كهوفًا أو أماكن أخرى للاختباء. هنا كنا محميين من هجمات الحيوانات المفترسة البرية الكبيرة؛ لكن الزواحف الطائرة الصغيرة، والأفاعي، والفهود، والنمور كانت تهديدًا مستمرًا، رغم أنها لم تكن لتشكل خطرًا بنفس القدر على حياتنا كما كان الحال مع الوحوش العملاقة التي تجوب سطح الأرض. مع نهاية اليوم الثالث، كنت أنا وأجور قادرين على التحدث بطلاقة إلى حد ما، وسبب ذلك راحة كبيرة لنا، خاصةً لأجور. كانت الآن لا تفعل شيئًا سوى طرح الأسئلة كلما سمحت لها الفرصة، وهو ما لم يكن دائمًا، حيث كان بقاؤنا يعتمد بشكل كبير على السرعة التي أتمكن بها من اكتساب المعرفة حول جغرافيا وعادات كاسباك، وبالتالي كان عليّ طرح العديد من الأسئلة بنفسي.

استمتعت للغاية بسماع إجاباتها وطرح الأسئلة عليها، لأن العديد من استفساراتها كانت بريئة للغاية، وكانت مليئة بالدهشة حول الأشياء التي أخبرتها بها عن العالم وراء الحواجز المرتفعة لكاسباك؛ لم تبدُ أبدًا متشككة فيّ، مهما بدا كلامي غريبًا؛ وربما كانت تلك الاستفسارات هي السبب في دهشتها، لأنها لم تتخيل أبدًا أن هناك حياة خارج كاسباك والحياة التي تعرفها، على الرغم من أن العديد من أسئلتها كانت بسيطة، فإنها كانت تظهر ذكاء حادًا ودهاءً بدا بعيدًا عن سنواتها أو تجربتها.

بشكل عام، وجدت صديقتي الصغيرة البدائية شخصًا مميزًا للاهتمام وقابلًا للصحبة، وغالبًا ما كنت أشكر القدر الطيب الذي

قاد تقاطع طرقنا. منها تعلمت الكثير عن كاسباك، لكن كان هناك ما يزال اللغز الذي أريك بوين تايلر - غياب الشباب تمامًا بين فئات القردة، والآدميين شبه البشر، والبشر الذين التقينا بهم على السواحل المتقابلة للبحر الداخلي. حاولت أجور شرح الأمر لي، على الرغم من أنه كان واضحًا أنها لم تستطع تصور كيف أن مثل هذه الحالة الطبيعية تتطلب تفسيرًا. أخبرتني أن بين الغالوس كان هناك بعض الأطفال الرضع، وأنها كانت في يوم من الأيام رضيعة، لكن معظم قومها «نشأوا»، كما قالت، «من البداية»؛ وأثناء قولها لهذه العبارة، كانت تشير بحركة واسعة نحو الجنوب.

شرحت وهي تقترب مني وتهمس في أذني بينما كانت ترسل نظرات قلقة حولها، وغالبًا نحو السماء، «لفترة طويلة كانت أمي تخفيني خوفًا من أن يمر الويروو، الذين يمرون في الهواء ليلاً، ويأخذوني إلى أوه-أوه.» وارتجفت الطفلة وهي تنطق الكلمة. حاولت أن أجعلها تخبرني المزيد؛ لكن رعبها كان حقيقيًا جدًا عندما تحدثت عن الويروو وأرض أوه-أوه حيث يقيمون، لدرجة أنني توقفت في النهاية، رغم أنني تعلمت أن الويروو كانوا يأخذون فقط الإناث من الأطفال الرضع وأحيانًا النساء من الغالوس اللائي «نشأن من البداية». كان الأمر غامضًا وصعب الفهم، لكنني بدأت أظن أن الويروو كانوا مخلوقات من الخيال، يمثلون الشياطين أو الآلهة في جنسها، وكلية المعرفة وكلية الوجود. هذا جعلني أستنتج أن الغالوس كان لديهم إحساس ديني، وأدى المزيد من الأسئلة إلى الكشف عن أن هذا كان صحيحًا. تحدثت أجر بنبرة من التوقير عن لواتا، إله الحرارة والحياة. الكلمة مشتقة من كلمتين: «لو» تعني

الشمس، و«اتا» تعني البيض، الحياة، الشباب، والتكاثر. أخبرتني أنهم كانوا يعبدون لواتا بعدة أشكال، كالنار، والشمس، والبيض، وأشياء مادية أخرى كانت تشير إلى الحرارة والتكاثر.

كنت قد لاحظت أنه كلما أضرمت نارًا، كانت أجور تشكل مثلثًا متساوي الساقين في الهواء أمامها باستخدام سبابتها، وكانت تفعل الشيء نفسه في الصباح عندما ترى الشمس لأول مرة. في البداية لم أكن أربط فعلها بأي شيء محدد، لكن بعد أن تعلمنا كيف نتحدث وشرحت لي قليلًا عن خرافاتها الدينية، أدركت أنها كانت تضع علامة المثلث كما يفعل الكاثوليك عند الإشارة بالصليب. دائمًا ما كان الجانب القصير من المثلث في الأعلى. أثناء شرحها لي كل هذا، أشارت إلى الزخارف على أساورها الذهبية، وعلى رأس مقبض خنجرها، وعلى الشريط الذي يحيط بساقها اليمنى فوق الركبة، وكان التصميم دائمًا جزئيًا مكونًا من مثلثات متساوية الساقين، وعندما شرحت معنى هذا الشكل الهندسي الخاص، فهمت فورًا مدى ملاءمته.

كنا الآن في بلاد الباند-لو، رماة الرماح في كاسباك. كان بوين قد أشار في روايته إلى أن هؤلاء الناس كانوا مشابهين لما يسمى جنس الكرو-ماجنون في العصر الحجري العلوي، ولذلك كنت متحمسًا للغاية لرؤيتهم. ولم أخيب أملها؛ رأيتهم، نعم! تركنا بلاد الستولو وقطعنا طريقنا عبر صفوف من الوحوش البرية لمدة يومين عندما قررنا أن نقيم المعسكر في وقت أبكر من المعتاد، بسبب أننا وصلنا إلى خط من المنحدرات الممتدة من الشرق إلى الغرب التي كانت تحتوي على العديد من الكهوف المحتملة للإقامة. كنا مرهقين للغاية،

ورؤية هذه الكهوف، التي كان يمكن أن نحصن بعضها بسهولة، جعلتنا نقرر التوقف حتى صباح اليوم التالي. لم يستغرق استكشافنا إلا بضع دقائق لاكتشاف كهف معين مرتفع على جدار المنحدر بدا مثاليًا لغرضنا. كان يفتح على حافة ضيقة حيث يمكننا اشعال نار الطهي؛ وكان الفتحة صغيرة لدرجة أننا اضطررنا للاستلقاء والزحف من خلالها للدخول، بينما كان الداخل ذو سقف مرتفع وواسع. أشعلت حزمة من الحطب وألقيت نظرة حولي؛ ولكن بقدر ما استطعت أن أرى، كان الغرفة تمتد إلى داخل المنحدر.

وضعت بندقيتي، ومسدسي وحزام الذخيرة الثقيل جانبًا، وتركت أجور في الكهف بينما ذهبت لجمع الحطب. كان لدينا بالفعل لحم وفواكه جمعناها قبل وصولنا إلى المنحدرات، وكان قاربي مملوءًا بالماء العذب. لذلك، كان كل ما نحتاجه هو الوقود، وبما أنني كنت دائمًا أحرص على توفير قوة أجور ما استطعت، فلم أسمح لها بمرافقتي. كانت الفتاة المسكينة مرهقة للغاية؛ لكنها كانت ستذهب معي ولو ستسقط في الطريق، أعلم، فكانت وفية للغاية. كانت أفضل رفيقة في العالم، وأحيانًا كنت أندم وأحيانًا كنت سعيدًا لأنها لم تكن من طبقتي الخاصة، لأنه لو كانت كذلك، لوقعت بلا شك في حبها. أما كما كان الحال، كنا نسافر معًا مثل شابين، مع احترام هائل لبعضنا البعض ولكن دون أي أرق.

كان هناك قليل من الأخشاب بالقرب من قاعدة المنحدرات، لذلك اضطررت لدخول الغابة على بعد حوالي مئتي ياردة. أدرك الآن كم كان فعلي متهورًا في أرض مثل كاسباك، المليئة بالخطر والموت؛ ولكن يوجد مقدار معين من الحماقة في كل رجل؛ وذلك المقدار

الذي كنت أملكه لابد وأنه كان في ذروته في ذلك اليوم، لأن الحقيقة هي أنني دخلت تلك الغابة بلا دفاع على الإطلاق؛ ودفعت الثمن، كما يفعل الناس عادة بسبب رعونتهم. بينما كنت أبحث في الأدغال عن قطع محتملة من الحطب، وقد انحنى رأسي وعيني على الأرض، شعرت فجأة بوزن كبير يندفع نحوي. ناضلت على ركبتي وأمسكت بمهاجمي، إنه رجل ضخم عارٍ عارٍ باستثناء قطعة قماش من جلد الأفعى على الخصر، والرأس يتدلى حتى الركبتين. كان الرجل مسلحًا برمح حاد من الحجر، وسكين من الحجر وفأس. في شعره الأسود كانت هناك عدة ريش ملونة. بينما كنا نتصارع ذهابًا وإيابًا، كنت ببطء أحرز تقدمًا عليه، عندما جاء عشرون من أقرانه وغلبوني.

قيدوا يدي خلفي بحبال من الجلد الخام، ثم فحصوني بنظرات ناقدة. وجدتهم عينات رائعة من الرجولة، في معظمهم. كان هناك بعض بينهم يشبهون الستولو وكانوا مشعرين؛ ولكن الأغلبية كان لديهم رؤوس ضخمة وملامح ليست غير جميلة. لم يكن هناك الكثير في مظهرهم ما يوحي بالقردة، كما في الستولو، بو-لو وآلوس. توقعت منهم أن يقتلوني فورًا، لكنهم لم يفعلوا. بدلاً من ذلك، استجوبوني؛ لكن كان واضحًا أنهم لم يصدقوا قصتي، لأنهم سخروا وضحكوا مني.

قالو: «لقد طردكم الغالوس، إذا عدتم إليهم، ستموتون. إذا بقيتم هنا، ستموتون. سنقتلكم، لكن أولًا سيكون لدينا حفل رقص وسنرقص معكم، رقصة الموت.»

بعث هذا على الطمأنينة! لكنني كنت أعلم أنني لن أقتل فورًا،

فاستجمعت قواي. قادوني نحو المنحدرات، وعندما اقتربنا منها، نظرت إلى الأعلى وكنت متأكدًا أنني رأيت عيني أجر اللامعتين تراقبنا من كهفنا المرتفع؛ لكنها لم تعطي أي إشارة عندما رأتني؛ وواصلنا السير، التففنا حول طرف المنحدرات وواصلنا على الجانب المقابل لها حتى وصلنا إلى جزء مليء بالكهوف. كان هناك العشرات من أفراد القبيلة منتشرين في كل مكان، على الأرض وفوق الحواف التي تقود إلى المداخل، وكان هناك مئات منهم. كان هناك العديد من النساء ولكن لا أطفال أو رضع، على الرغم من أنني لاحظت أن الإناث كان لديهن صدور أكثر تطورًا من أي ممن رأيت بين أصحاب الفؤوس، أو أصحاب العصي، أو آلوس أو القردة. في الواقع، بين طبقات البشر الأدنى في كاسباك، الصدر الأنثوي هو عضو بدائي، بالكاد يظهر عند القردة وآلوس، ويبدو أكثر تحديدًا قليلاً عند بو-لو وستولو، على الرغم من أنه دائمًا ما يتزايد حتى يظهر نصف تطور في الإناث من رماة الرماح؛ ومع ذلك، لم يكن هناك أي دلالة على أن الإناث قد أرضعن صغارًا؛ ولم يكن هناك أي صغار بينهن. بعض نساء الباند-لو كن جميلات حقًا. كانت أجسام جميعهم، من رجال ونساء، متناسقة وإن كانت ثقيلة، وعلى الرغم من وجود بعض الذين كانوا يميلون إلى النوع الستولو، كان هناك آخرون كانوا وسيمين للغاية وكانت أجسادهم خالية من الشعر. الآلوس جميعهم ملتحون.

لكن بين شعب بو-لو، تختفي اللحية لدى النساء. الرجال من ستو-لو يظهرون لحية خفيفة، أما رجال باند-لو فلا لحية لهم، كما أن هناك شعرًا قليلًا على أجسام نسائهم. أبدى أفراد القبيلة اهتمامًا كبيرًا بي، خاصة في ملابسي التي لم يروا مثلها بالطبع من قبل.

شدوا عليّ، وبعضهم ضربني؛ لكن في الغالب لم يكونوا ميّالين إلى الوحشية. كان فقط الأكثر شعرًا، الذين كانوا يشبهون رجال ستو-لو إلى حد كبير، هم من أساءوا معاملتي. أخيرًا، قادني خاطفوني إلى كهف كبير كان يشب فيه النار عند مدخله. كان أرضه مغطاة بالقذارة، بما في ذلك عظام العديد من الحيوانات، وكانت الأجواء مشبعة برائحة الأجساد البشرية واللحم المتعفن. هنا قدموا لي الطعام، وأطلقوا يدي، فتناولت شريحة لحم من الثور البري نصف مطهوة، ومرقًا قد يكون مصنوعًا من الثعابين، لأن العديد من قطع اللحم الطويلة والمدورة كانت تذكرني بالثعابين بشكل مقزز. بعد أن انتهيت من الطعام، قادوني إلى داخل الكهف، حيث أضاءوا المكان بالشعلة المثبتة في شقوق مختلفة، وفي ضوء تلك المشاعل، رأيت، لدهشتي، أن الجدران مغطاة برسومات ونقوش. كانت هناك رسومات للثيران البرية، والغزلان الحمراء، والنمر ذو الأنياب السابر، والدب الكهفي، والهيايناودون، والعديد من أمثلة الفونا الخاصة بكاسباك، مرسومة بألوان، عادةً بأربعة درجات من البني، أو محفورة على سطح الصخور. في كثير من الأحيان كانت هذه الرسوم مكدسة فوق بعضها، حتى أنه كان يتطلب فحصًا دقيقًا لتتبع الخطوط المختلفة. لكن جميعها أظهرت قدرة ملحوظة على التحديد، وهو ما عزز المقارنات التي أجراها بوين بين هؤلاء الناس وبين الكرو-ماجنون المنقرضين، الذين لا تزال فنونهم القديمة محفوظة في كهوف نياو ولي بورتيل. ومع ذلك، فإن باند-لو لم يمتلكو القوس والسهم، وفي هذه النقطة يختلفون عن أسلافهم أو خلفائهم المنقرضين في أوروبا الغربية. إذا قرأ أصدقائي يومًا ما قصة

مغامراتي في كابرونا، آمل ألا يشعروا بالملل من هذه التفصيلات، وإذا شعروا بذلك، يمكنني فقط أن أقول إني أكتب مذكراتي لتثقيف نفسي، وبالتالي أسجل الأشياء التي لفتت انتباهي في ذلك الوقت.

ليس لدي رغبة في أن يكون لدي جمهور عام حول هذه الصفحات، ولكن قد يطلع عليها أصدقائي وبعض العلماء المهتمين؛ بينما لا أعتذر عن فلسفتي، أشرح بتواضع أنهم يشهدون محاولات عقل محدود حاول الوصول إلى اللا محدود، في البحث عن تفسيرات لما لا يمكن تفسيره.

عند زاوية بعيدة من الكهف، طلب مني خاطفوني التوقف. مرة أخرى تم تقييد يديّ، وهذه المرة رُبطت قدماي أيضًا. خلال العملية، استجوبوني، وكنت سعيدًا للغاية لأن التشابه الواضح بين لغات قبائل كاسباك المختلفة مكننا من فهم بعضنا البعض تمامًا، رغم أنهم لم يتمكنوا من تصديق أو حتى فهم حقيقة أصلي وظروف وصولي إلى كاسباك؛ وأخيرًا تركوني قائلين إنهم سيعودون لأخذني قبل رقصة الموت في الغد. قبل أن يغادروا ومعهم المشاعل، لاحظت أنني لم أكن قد وصلت إلى أقصى نقطة في الكهف، لأن ممرًا مظلمًا وكئيبًا كان يمتد بعيدًا عن زنزانتي إلى قلب الجرف. لم أستطع إلا أن أتأمل في ضخامه هذا الكهف العظيم تحت الأرض. كنت قد عبرت بالفعل عدة مئات من الأمتار منه، ومن العديد من النقاط كان هناك ممرات أخرى تتفرع. يجب أن يكون الجرف كله مملوءًا بالغرف والممرات، وهذه الجماعة تحتل جزءًا صغيرًا نسبيًا منه، مما جعل احتمال أن تكون الممرات الأكثر بعدًا مأوى للحيوانات الوحشية التي لها وسائل دخول وخروج أخرى غير تلك التي يستخدمها باند-لو

يملأني بمشاعر كئيبة. أعتقد أنني عادة لا أكون سريع القلق بشكل غير مبرر؛ ومع ذلك، يجب أن أعترف أنه في ظل الظروف التي كنت أواجهها، شعرت أن أعصابي قد اهتزت قليلاً. في الغد كنت سأموت بطريقة ما، موتًا لا اسم له، من أجل تسلية قطيع متوحش، ولكن كان الغد يحمل لي رهبة أقل من الحاضر، وأترك أي رجل عاقل يقيّم ما إذا كان ليس أمرًا مخيفًا أن تكمن مقيد اليدين والقدمين في الظلام الحالك لكهف ضخم يعج بالمخاطر المجهولة في أرض تغزوها وحوش وزواحف مرعبة ذات شرسة شديدة. في أي لحظة، وربما في هذه اللحظة نفسها، قد يلتقط وحش مفترس ذو خطوات صامتة رائحتي حيث كان يختبئ في ممر مجاور، وقد يزحف نحوي في صمت. قمت بإدارة عنقي وأخذت أتطلع عبر الظلام الحالك بحثًا عن نقطتي الحقد المتوهجتين اللتين كنت أعلم أنهما ستعلن قدوم جلادي. كانت تصورات عقلي المرهق حقيقية جدًا لدرجة أنني بدأ جسدي يبلل بالعرق البارد، مقتنعًا تمامًا بأن هناك وحشًا قريبًا مني؛ لكن الساعات مرّت، ولم يكسر أي صوت السكون الصخري في الكهف.

خلال تلك الفترة الأبدية، مرت أمام عيني العديد من أحداث حياتي، عرض ضخم للأصدقاء والمواقف التي ستمحى إلى الأبد في الغد. لعنت نفسي على الفعل الأحمق الذي أخذني من فريق البحث الذي كان يعتمد عليّ بشدة، وتساءلت عن التقدم، إن كان هناك أي، الذي أحرزوه. هل كانوا لا يزالون وراء جرف الحواجز، ينتظرون عودتي؟ أم هل وجدوا طريقًا إلى كاسباك؟ شعرت أن الأخير هو الصحيح، لأن الفريق لم يكن مكونًا من رجال يسهل تحويلهم عن

هدفهم. من المحتمل جدًا أنهم كانوا قد بدأوا في البحث عني بالفعل؛ ولكن كان لدي شك في أنهم سيجدون أي أثر لي. منذ زمن طويل، توصلت إلى استنتاج مفاده أنه من المستحيل على الإنسان أن يدور حول سواحل البحر الداخلي في كاسباك في مواجهة التهديدات التي تتربص في كل ظل، نهارًا وليلًا. منذ زمن طويل، تخلّيت عن أي أمل في الوصول إلى النقطة التي دخلت منها البلاد، ولذلك كنت الآن مقتنعًا تمامًا أن حملتنا كلها كانت أسوأ من عديمة الجدوى منذ لحظة انطلاقها، لأن بوين جي. تايلر وزوجته لم يكن بإمكانهما البقاء على قيد الحياة طوال هذه الأشهر الطويلة؛ ولا يمكن أن يكون برادلي وفرقته من البحارة على قيد الحياة بعد. إذا كانت القوة والتجهيزات المتفوقة لفريقي قد مكنتهم من الدوران حول الطرف الشمالي للبحر، فقد يصادفون في يوم من الأيام حطام طائرتي المكسورة معلقة في الشجرة الكبيرة إلى الجنوب؛ لكن قبل ذلك بوقت طويل، ستكون عظامي قد أضيفت إلى الحطام على أرضية هذا الكهف العظيم.

وفي كل أفكاري، الحقيقية والمتخيلة، كان يتحرك صورة لفتاة مثالية، عيونها صافية، وقوية، ومستقيمة، وجميلة، ذات وقفة ملكة ورشاقة مرنة ومتلوية كالفهد. على الرغم من أنني أحب أصدقائي، كان مصيرهم يبدو لي أقل أهمية من مصير هذه الغريبة البربرية الصغيرة التي كنت قد أقنعت نفسي مرارًا وتكرارًا أنني لا أشعر تجاهها إلا بمودة عابرة لصديق في هذه الأرض المليئة بالرعب. ومع ذلك، كنت أقلق وأتذمر بشأنها وبمستقبلها حتى نسيت في النهاية موقفي الخاص، على الرغم من أنني كنت لا أزال أكافح بين الحين

والآخر مع روابط يدي في محاولة يائسة لتحرير نفسي؛ وكان ذلك بقدر ما كنت أسعى لحمايتها كما كنت أسعى للهروب من المصير الذي كان قد خطط لي. وفيما كنت مشغولًا بذلك، ونسيت مؤقتًا مخاوفي بشأن الحيوانات المتسللة، فزعني فجأة صمت مقلق بفعل صوت مميز وغير قابل للشك قادم من الممر المظلم الذي يمتد نحو قلب الجرف، صوت أقدام مخملية تتحرك بهدوء في اتجاهي.

أعتقد أنه لم يحدث في حياتي كلها، حتى في ظل مخاوف ليالي الطفولة، أن شعرت برعب شديد كما شعرت في تلك اللحظة التي أدركت فيها أنه يجب عليّ أن أبقى مقيدًا وعاجزًا بينما يزحف عليّ وحش مفترس ليلتهمني في هذا الظلام الدامس في حفر باند-لو في كاسباك. كنت أقطر عرقًا باردًا، وكان جسدي يرتجف، كنت أشعر به يرتجف. إذا كنت قد اقتربت يومًا من الجبن المطلق، فلا أذكر تلك اللحظة؛ ومع ذلك، لم يكن خوفي من الموت، لأنني كنت قد استسلمت لفكرة أنني ضائع منذ زمن بعيد فبضعة أيام في كاسباك تكفي لكي تترك أي شخص مدركًا لفراغ الحياة التام. المياه، والأرض، والهواء تعج بذلك، وهي دائمًا ثلتهم على يد شكل آخر من أشكال الحياة. الحياة هي أرخص شيء في كاسباك، كما هي أرخص شيء على الأرض، وربما هي أرخص إنتاج كوني. لا، لم أكن خائفًا من الموت؛ في الواقع، كنت أصلي من أجل الموت، لكي أُخفف من الرعب الذي يعتري فترة حياتي المتبقية كان علي الانتظار، ذلك الانتظار الرهيب، لوصول الوحش المخيف إليّ وضربه لي.

ومع مرور الوقت، اقترب حتى أصبح بإمكاني سماع تنفسه، ثم لمسته وقفز بعيدًا بسرعة كما لو أنه فوجئ بي. لم ينكسر الصمت

المدفون في الكهف لوقت طويل. ثم سمعت حركة من الكائن القريب مني، ولمسني مرة أخرى، وشعرت بشيء يشبه يدًا خالية من الشعر تمر على وجهي وتنحدر حتى لامست طوق قميصي الفلاني. ثم، بصوت خافت ومملوء بالعاطفة المكبوتة، نادت: «توم!»

أعتقد أنني كدت أغشي عليّ، فكانت ردّة فعلي شديدة. «أجور!» تمكّنت من قولها. «أجور، يا فتاتي، هل تكونين أنتِ؟»

«أوه، توم!» صاحت مرة أخرى بصوت مرتعش وألقت بنفسها عليّ، وهي تبكي بهدوء. لم أكن أعرف أن أجور يمكنها البكاء.

بينما كانت تقطع قيودي، أخبرتني أنها من مدخل كهفنا رأت باند-لو يخرجون من الغابة معي، وتبعتهم حتى أدخلوه إلى الكهف الذي كان يقع على الجهة المقابلة للجرف الذي يقع فيه كهفنا؛ ثم، وهي تعلم أنها لا تستطيع فعل شيء من أجلي حتى ينام باند-لو، عادت بسرعة إلى كهفنا. وبصعوبة بالغة، وصلت إليه بعد أن كانت قد تعقبتها أسد الكهف، وكادت تُمسك بها. ارتجفت من الخطر الذي تعرضت له.

كانت نيتها أن تنتظر حتى بعد منتصف الليل، عندما يكون معظم الحيوانات المفترسة قد أنجزت صيدها، ثم تحاول الوصول إلى الكهف الذي كنت فيه لتحررني. شرحت لي أنه باستخدام بندقيتي ومسدسي، الذين أكدت لي أنها تستطيع استخدامهما بعد أن راقبتني عدة مرات، كانت تخطط لترهيب باند-لو وإجبارهم على تسليمي. يا لها من فتاة شجاعة! كانت ستخاطر بحياتها بكل سرور لإنقاذي. ولكن بعد أن وصلت إلى كهفنا، سمعت أصواتًا من أعماق الكهف، وخلصت على الفور إلى أننا ربما كنا قد اكتشفنا مدخلًا آخر إلى

الكهوف التي يحتلها باند-لو على الجهة الأخرى من الجرف. ومن ثم، انطلقت عبر تلك الممرات المتعرجة وفي الظلام الدامس كانت تتلمس طريقها، موجهة فقط بإحساسها المدهش بالاتجاه، حتى وصلت حيث كنت. كان عليها أن تسير بحذر شديد حتى لا تسقط في هوة في الظلام، وفي الحقيقة، تعرضت ثلاث مرات لانحدارات شديدة واضطرت إلى أخذ أخطر المخاطر لتجاوزها. أرتجف حتى الآن عندما أتخيل ما مرّت به هذه الفتاة من أجل من أجلي، وكيف أنها زادت من خطرها عندما حملت وزن ذراعيّ وذخائري، وأثقلت نفسها ببندقية طويلة كانت غير معتادة على حملها.

كان بإمكاني أن أركع وأقبل يدها إجلالًا وامتنانًا؛ ولا أستحيي أن أقول إن هذا بالضبط ما فعلته بعد أن تم تحرير يدي وسمعت قصة معاناتها. يا لها من فتاة شجاعة، أجور! فتاة العجائب من الماضي البعيد الذي لا يُتصور! لم تُقبّل من قبل، لكنها بدت وكأنها تشعر بشيء من معنى هذه اللمسة الجديدة، فاقتربت في الظلام وضغطت شفتيها على جبهتي. وأصابني دافع مفاجئ لأن أمسك بها وأشدها إلى صدري وأغمر شفتيها الحارة بتلك القبلات من الحب الحقيقي، لكنني لم أفعل ذلك، لأنني كنت أعلم أنني لا أحبها؛ وأن أقبلها بهذه الطريقة، بشغف، كان سيكون ظلمًا كبيرًا لهذه التي قدمت حياتها من أجل حياتي.

لا، يجب أن تكون أجور بأمان معي كما لو كانت مع والدتها، إذا كانت لها أم، رغم أنني كنت أميل إلى الشك في ذلك، حتى وإن أخبرتني أنها كانت طفلة مختبئة في الماضي مع والدتها. لقد بدأت أشك في وجود شيء مثل الأم في كاسباك، أم كما نعرفها. من بو-لو

إلى كرو-لو لا توجد كلمة تعادل كلمة «أم» لدينا. «يقولون عن الأم و'آتا' و'كور سفا جو'، بمعنى التكاثر و«من البداية»، ويشيرون نحو الجنوب؛ لكن لا أحد لديه أم. بعد صعوبة كبيرة، وصلنا إلى ما ظننا أنه مغارتنا، لنكتشف أنها ليست كذلك، وعندها أدركنا أننا ضللنا في المتاهات الملتوية للكهف العظيم. عدنا على خطواتنا وبحثنا عن النقطة التي بدأنا منها، لكننا فشلنا في العثور عليها وأصبحنا أكثر ضياعاً. كانت أجور مذهولة - ليس من خوفها من وضعنا، بل لأننا فشلنا في استخدام تلك الحاسة العجيبة التي تتمتع بها والتي يشترك فيها معظم الكائنات الكاسبكية، والتي تجعلها قادرة على التنقل بلا خطأ من مكان لآخر دون بوصلة أو مرشد. يدًا بيد، زحفنا على طول الكهف، باحثين عن مخرج إلى العالم الخارجي، ونحن ندرك أنه في كل خطوة قد نكون نغوص أعمق في قلب الجرف العظيم، أو ندور بلا فائدة في تيه غامض قد ينتهي بالموت. والظلام! كان يكاد يكون ملموسًا، ومكتئبًا تمامًا. كان لدي أعواد ثقاب، وفي بعض الأماكن الأكثر صعوبة، كنت أشعل واحدة؛ لكننا لم نكن نريد إهدارها، لذا كنا نتحسس طريقنا ببطء، نحاول أن نلتزم باتجاه عام على أمل أن يقودنا في النهاية إلى مخرج نحو العالم الخارجي. وعندما أشعلت الثقاب، لاحظت أن الجدران لا تحمل أي رسومات؛ ولا كان هناك أي دليل على أن الإنسان قد اخترق هذا العمق من الجرف، ولا أي آثار لحيوانات من أنواع أخرى. سيكون من الصعب تقدير الوقت الذي قضيناه في التجول عبر تلك الممرات السوداء، نتسلق المنحدرات الحادة، نتلمس أطراف الهاويات اللامتناهية، دون أن نعرف في أي لحظة قد نقع في هوة

ما، دائمًا ما يطاردنا الرعب الدائم من الموت جوعًا وعطشًا. رغم صعوبة ذلك، كنت أدرك أنه كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير لو كان لدي مرافق آخر غير أجور - أجور الشجاعة، التي لا تشكو، والوفية! كانت متعبة وجائعة وعطشى، ولا بد أنها كانت محبطة؛ لكنها لم تتردد في التفاؤل. سألتها إن كانت خائفة، فأجابت أنه هنا لا يمكن للوييروو أن يصيبها، وأنه إذا ماتت من الجوع، فستموت على الأقل معي، وكانت راضية تمامًا أن يكون هذا هو نهايتها. في تلك اللحظة، نسبت موقفها إلى شيء يشبه الإخلاص الكلب لمعلم جديد كان لطيفًا معها. أستطيع أن أؤكد لك أنني لم أظن أنه كان شيئًا أكثر من ذلك. سواء كنا محتجزين في الجرف ليوم أو أسبوع، لا أستطيع أن أقول؛ وحتى الآن لا أعلم. أصبحنا متعبين جدًا وجائعين؛ كانت الساعات تسحب؛ نمنا مرتين على الأقل، ثم استيقظنا واستمرينا في السير، ونحن نضعف أكثر فأكثر. كانت هناك فترات كان فيها اتجاه الممرات دائمًا صاعدًا. كان العمل مرهقًا للناس في حالتنا من الإرهاق، لكننا تمسكنا به بإصرار. تعثرنا وسقطنا؛ غرقنا بسبب عدم قدرتنا الجسدية على البقاء على أقدامنا؛ لكن دائمًا تمكنا من النهوض أخيرًا والمضي قدمًا. في البداية، حيثما أمكن، كنا نمشي يدًا بيد لئلا نفترق، وبعد ذلك، عندما رأيت أن أجور كانت تضعف بسرعة، مشينا جنبًا إلى جنب، وأنا أساندها بذراع حول خصرها. كنت لا أزال أتحمل عبء سلاحي؛ لكن مع تعليق البندقية على ظهري، كانت يداي حرتين. عندما بدأت أظهر علامات تعب واضحة، اقترحت أجور أن أضع سلاحي وذخيرتي جانبًا؛ لكن أخبرتها أنه بما أنه يعني الموت المؤكد لي أن أعبر كاسباك دونها، فقد كان من الأفضل أن

أخاطر بالموت هنا في الكهف معها، لأنه كان هناك احتمال آخر أننا قد نجد طريقنا إلى الحرية. جاء وقت لم تتمكن فيه أجور من المشي، وعندها حملتها بين ذراعي. توسلت إلي أن أتركها، قائلة إنه بعد أن أجد مخرجًا، يمكنني العودة لأخذها؛ لكنها كانت تعرف، وكانت تعرف أنني أعرف، أنه إذا تركتها، فلن أتمكن أبدًا من العثور عليها مرة أخرى. ومع ذلك، أصرت. بالكاد كان لدي القوة لأخطو عشرين خطوة في المرة، ثم كان علي أن أنحني وأستريح لمدة خمس إلى عشر دقائق. لا أعرف ما القوة التي دفعتني للاستمرار وأبقتني في الطريق رغم اقتناعي التام بأن جهودي كانت عبثية تمامًا. كنت أعتبرنا بالفعل في عداد الموتى؛ لكنني ما زلت أسحب نفسي على طول الطريق حتى جاء الوقت الذي لم أتمكن فيه من النهوض، بل أصبح بإمكاني الزحف بضعة بوصات في كل مرة، وأنا أسحب أجور بجانبي.

كان صوتها العذب، الذي أصبح بالكاد مسموعًا بسبب ضعفها، يتوسل إلي أن أتركها وأنقذ نفسي، بدت وكأنها لا تفكر إلا في. بالطبع لم أستطع تركها هناك وحدها، مهما كانت رغبتي في ذلك؛ لكن الحقيقة هي أنني لم أرغب في تركها. ما قلته لها حينها جاء ببساطة وتلقائية على شفتي. لم يكن من الممكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، على ما أعتقد، فمع اقتراب الموت، أشك في أن الناس يميلون إلى الأعمال البطولية. «أفضل ألا أخرج على الإطلاق، قلت لها: «أجور لا يمكن أن أخرج بدونك.» كنا نستريح بجانب جدار صخري، وكانت أجور تتكئ علي، ورأسها على صدري. كنت أشعر بها تلتصق بي، وكانت يدها تلامس ذراعي بلمسة ضعيفة؛ لكنها لم تقل شيئًا، ولم

تكن الكلمات ضرورية. بعد بضع دقائق من الراحة، بدأنا في طريقنا اليائس من جديد؛ لكنني سرعان ما أدركت أنني أضعف بسرعة، وفي النهاية اضطررت للاعتراف بأنني قد انتهيت.

قلت: «لا فائدة، أجور، لقد جئت إلى حيث أستطيع. ربما إذا نمت، يمكنني الاستمرار بعد ذلك، ولكنني كنت أعلم أن هذا غير صحيح، وأن النهاية قريبة. قالت أجور «نعم، نم، سوف ننام معًا إلى الأبد.» زحفت بالقرب مني بينما كنت مستلقيًا على الأرض الصلبة، ووضع رأسها على ذراعي. مع ما تبقى لي من قوة، سحبتها حتى تلامست شفاهنا، ثم همست: «وداعًا!» لا بد أنني فقدت الوعي على الفور تقريبًا، لأنني لا أذكر شيئًا بعدها حتى استيقظت فجأة من نوم مضطرب، كنت قد حلمت فيه أنني أغرق، لأجد الكهف مضاءً بما بدا أنه ضوء نهاري منتشر، وسيل صغير من الماء يتدفق في الممر مكونًا بركة في الحفرة الصغيرة التي صادفنا أن نرقد فيها أنا وأجور. التفت بسرعة إلى أجور، خائفًا مما قد يكشفه الضوء؛ لكنها كانت لا تزال تتنفس، رغم ذلك بشكل خافت جدًا. ثم بحثت عن تفسير للضوء، واكتشفت قريبًا أنه جاء من زاوية الممر الذي أمامنا وعلى قمة منحدر حاد؛ وفجأة أدركت أنني وأجور قد تهنا ليلًا تقريبًا حتى بوابة الخلاص. لو كان الحظ قد قادنا بضع ياردات أخرى، في أي من الممرات التي تفرعت من ممرنا أمامنا، لكنا قد ضللنا إلى الأبد؛ قد نكون ما زلنا ضائعين؛ ولكن على الأقل كان بإمكاننا أن نموت في ضوء النهار، بعيدًا عن هذا الظلام الفظيع في هذا الكهف الرهيب. حاولت النهوض، فوجدت أن النوم قد أعاد لي جزءًا من قوتي؛ ثم تذوقت الماء وازدادت انتعاشًا. هزت أجور بلطف من كتفها؛ لكنها لم

تفتح عينيها، ثم جمعت بيدي بعض قطرات من الماء وسكبته بين شفتيها. أعاد ذلك إليها بعض الحياة، فرفعت جفنيها، وعندما رأتني، ابتسمت.

سألتني: «ماذا حدث؟ وأين نحن؟»

أجبت: «نحن في نهاية الممر, والضوء النهاري قادم من العالم الخارجي أمامنا. نحن في أمان، أجورا»

جلست أجور ثم نظرت حولها، ثم، مثل النساء، انفجرت في البكاء. كان ذلك رد فعل، بالطبع؛ فقد كانت هي أيضًا ضعيفة جدًا. أخذتها في ذراعي وهدأتها بأفضل ما يمكنني، وأخيرًا، بمساعدتي، نهضت على قدميها؛ لأنها، كما كنت أنا، قد شعرت ببعض الاستعادة في النوم. معًا تمايلنا نحو الضوء، وعند أول منعطف، رأينا مخرجًا على بعد عدة ياردات منا وسماء رمادية وراءه-سماء رمادية كانت تمطر بمطر خفيف، وهو مصدر السيل الصغير الذي أعطانا شربًا عندما كنا في أمس الحاجة إليه.»

كان الكهف رطبًا وباردًا؛ لكن عندما زحفنا عبر الفتحة، كان دفء الهواء الكاسبكي العائم يلامسنا ويواجهنا؛ حتى المطر كان أكثر دفئًا من جو تلك الممرات المظلمة. كان لدينا الماء الآن، والدفء، وكنت متأكدًا أن كاسباك ستقدم لنا اللحم أو الفاكهة قريبًا؛ ولكن عندما وصلنا إلى المكان الذي أتيح لنا فيه النظر حولنا، رأينا أننا على قمة الجروف، حيث لم يكن هناك سبب يُذكر لتوقع وجود صيد. ومع ذلك، كانت هناك أشجار، ومن بينها اكتشفنا قريبًا فواكه صالحة للأكل كسرنا بها صيامنا الطويل.

لقد قضينا يومين على قمة الجرف، نسترخي ونتعافى ووجدنا هناك بعض الصيد الصغير الذي وفر لنا اللحم، وكانت البرك الصغيرة من مياه الأمطار كافية لإرواء عطشنا. خرجت الشمس بعد بضع ساعات من خروجنا من الكهف، وفي دفئها تخلصنا بسرعة من الكآبة التي فرضتها علينا تجاربنا الأخيرة. في صباح اليوم الثالث، انطلقنا للبحث عن طريق ينزلنا إلى الوادي. أسفلنا، إلى الشمال، رأينا بركة كبيرة تقع عند قاعدة الجروف، وفيها كان يمكننا تمييز نساء من قبيلة بان-لو مستلقيات في المياه الضحلة، بينما كان هناك بعيدًا، وقريبًا من قاعدة الجروف العظيمة، مجموعة كبيرة من محاربي بان-لو يتجهون شمالًا للصيد. كان لدينا منظر رائع من قمة الجرف المرتفعة. بصعوبة، إلى الغرب، كنا نرى الشاطئ البعيد للبحر الداخلي، وإلى الجنوب الغربي كانت الجزيرة الجنوبية الكبيرة تلوح بوضوح أمامنا. شرق الشمال قليلاً كانت الجزيرة الشمالية، التي همست أجور مرتجفة أنها موطن الوييروو-أرض أو-أوه، كانت تقع في أقصى طرف البحيرة وكنا بالكاد نراها، حيث كانت تبعد ستين ميلاً. من ارتفاعنا هذا، وفي جو أكثر صفاءً، كان من الممكن أن تكون واضحة للغاية؛ لكن هواء كاسباك ثقيل بالرطوبة، مما يجعل الأجسام البعيدة ضبابية وغير واضحة. كما أخبرتني أجور أن البر الرئيسي شرق أو-أوه هو أرضها-أرض الجالو.

أشارت إلى الجروف عند حدها الجنوبي، التي تحدد الحدود، وجنوبها تقع أرض كرول-لو-رماة السهام. لم يكن أمامنا الآن سوى عبور بقية أراضي بان-لو وأراضي كرول-لو لنصل إلى حدود أرضها؛ لكن ذلك يعني عبور خمسة وثلاثين ميلاً من الأراضي المعادية

المملوءة بكل الرعب الممكن، وربما الكثير مما يتجاوز حدود الخيال. كنت بالتأكيد سأعطي الكثير من أجل طائرتي في تلك اللحظة، لأنه بها، كان يمكننا أن نصل إلى أرض أجور في عشرين دقيقة. أخيرًا، وجدنا مكانًا يمكننا فيه التسلل فوق حافة الجرف إلى صفيحة ضيقة بدا أنها تشير إلى أنها مسار صيد إلى الوادي، على الرغم من أنها على ما يبدو لم تُستخدم منذ فترة. خفضت أجور رأسها أمام بندقيتي ثم انزلقت بعد ذلك بنفسي، وأعترف أن شعري وقف على نهايته خلال العملية، لأن السقوط سيكون كبيرًا فالصفيحة ضيقة للغاية، مع هبوط مروع إلى الصخور في قاعدة الجرف؛ لكن أجور كانت موجودة لتلتقطني وتثبتني، نجحت في الوصول بأمان، ثم انطلقنا في المسار نزولاً نحو الوادي. كانت هناك أماكن سيئة أخرى، ولكن في الغالب كان النزول سهلًا، ووصلنا إلى أعلى مغارات بان-لو دون مشاكل إضافية. هنا سرنا ببطء أكثر، لئلا نتعرض لهجوم من أحد أفراد القبيلة. لابد أننا مررنا بنصف مغارات بان-لو قبل أن يوقفنا أحدهم، ثم خرج رجل ضخم أمامي، مانعًا تقدمنا.

«من أنتم؟» سألنا، وعرفني وعرفته، لأنه كان أحد الذين قادوني إلى الكهف وربطوني في الليلة التي تم فيها أسره. من عينيه انتقل نظره إلى أجور. كان رجلاً وسيماً ذو عيون واضحة وذكية، وجبهة جيدة وجسد رائع، أعلى نوع من الكاسباكيين الذين رأيتهم حتى الآن، باستثناء أجور بالطبع. «أنتِ جالو حقيقية,» قال لأجور، «لكن هذا الرجل من نوع مختلف. لديه وجه جالو، لكن أسلحته والجلود الغريبة التي يرتديها على جسده ليست من الجالو ولا من كاسباك. من هو؟»

«'هو توم،' أجابت أجور باختصار. 'لا يوجد شعب بهذا الاسم,' أكد بان-لو بصدق تام، وهو يلاعب رمحه بطريقة توحي بالكثير. أجبته شارحا بنفسي «اسمي توم, وأنا من بلد خارج كاسباك.» اعتقدت أنه من الأفضل أن أرضيه إذا أمكن، بسبب ضرورة الحفاظ على الذخيرة وكذلك لتجنب الصوت العالي لإطلاق النار الذي قد يجذب محاربي بان-لو آخرين إلينا. تابعت شرحي : «أنا من أمريكا، وهي أرض لم تسمع عنها، وأنا أبحث عن آخرين من مواطني بلدي الذين هم في كاسباك وقد فقدت الاتصال بهم. ليس لي أي خلاف معك أو مع شعبك. دعنا نمضي في طريقنا بسلام.» سألني: «هل أنت ذاهب إلى هناك؟» وأشار نحو الشمال. أجبت: «نعم». ظل صامتًا لبضع دقائق، يبدو أنه كان يزن فكرة في ذهنه. وأخيرًا تحدث: «ما هذا؟ وما هذا؟» أشار أولًا إلى بندقيتي ثم إلى مسدسي. فأجبته: «إنها أسلحة, أسلحة تقتل عن بُعد.» أشرت إلى النساء في البركة تحتنا. «بهذا» قلت وأنا أطرق مسدسي، «مكنني قتل أي عدد من تلك النساء كما أريد، دون أن أتحرك خطوة من مكاننا هذا.» نظر إليّ وهو مشكك، لكنني تابعت. « ومع هذا'- وزنت بندقيتي في كف يدي اليمنى - يمكنني قتل أحد أولئك المحاربين البعيدين.» وأشرت بيدي اليسرى إلى الأشكال الصغيرة للصيادين بعيدًا إلى الشمال. ضحك الرجل وقال باستهزاء: « افعلها وعندها ربما أصدق بقية قصتك الغريبة.» أجبته: «لكنني لا أريد قتل أي منهم, لماذا أفعل ذلك؟» ولكنه أصر «لماذا لا؟. كانوا سيقتلونك عندما أسرّوك وسيقتلونك الآن لو تمكنوا من الوصول إليك، وسيأكلونك أيضًا. لكنني أعرف لماذا لا تحاول؛ لأنك قد قلت أكاذيب؛ سلاحك لا يقتل عن بُعد.

إنه مجرد عصا غريبة الصنع. ومن يدري، ربما تكون مجرد بو-لو متواضع.» سألته: «لماذا تريدني أن أقتل شعبك؟» فأجاب بفخر: «إنهم لم يعودوا شعبي, في الليلة الماضية، في وسط الليل، جاءني النداء. هكذا جاء إلى رأسي'-وضرب يديه معًا بذكاء-أنني قد نهضت. كنت أنتظر ذلك وأتوقعه منذ وقت طويل؛ اليوم أنا كرول-لو. اليوم سأذهب إلى الكوسلوباك ،الأرض غير المأهولة، أو حرفيًا، أرض لا أحد، بين بان-لو وكرول-لو، وهناك سأصنع قوسي وسهامي ودرعي؛ هناك سأصطاد الغزال الأحمر من أجل الجاكيت الجلدي الذي هو رمز لرتبتي الجديدة. عندما أتم هذه الأشياء، يمكنني الذهاب إلى زعيم الكرول-لو، ولن يجرؤ على رفضي. لهذا السبب، يمكنك قتل هؤلاء البان-لو المنخفضين إذا أردت أن تعيش، لأنني في عجلة من أمري. سألته مرة أخرى:»لكن لماذا تريد قتلي؟» نظر إلي وهو في حيرة ثم استسلم وقال: «لا أعرف, اعترف، هذه هي الطريقة في كاسباك. إذا لم نقتل، سنُقتل، لذلك من الحكمة أن نقتل أولًا من لا ينتمي إلى شعبنا. هذا الصباح اختبأت في مغارتي حتى غادر الآخرون في الصيد، لأنني كنت أعرف أنهم سيتعرفون فورًا على أنني أصبحت كرول-لو وسيموتونني. سيقتلونني إذا وجدوني في الكوسلوباك؛ وكذلك سيقتلني الكرول-لو إذا صادفوني قبل أن أكسب أسلحتي وجاكيت الكرول-لو. أنت هذا هو السبب في أنني أعلم أنك تكذب عندما تقول أن أسلحتك ستقتل عن مسافة بعيدة. لو كانت كذلك، لكنت قد قتلتني منذ وقت طويل. هيا! ليس لدي وقت لأضيعه بالكلام. سأرحم المرأة وأأخذها معي إلى الكرو-لو، لأنها جميلة.» ومع ذلك، تقدم نحوي وهو يرفع رمحه.

كانت بندقيتي على خصرى جاهزة. كان قريبًا لدرجة أنني لم أحتج إلى رفعها إلى كتفي، بل كان يكفي أن أسحب الزناد لأرسله إلى ملكوت السماء متى أردت؛ لكنني ترددت. كان من الصعب أن أقتل إنسانًا. لم أشعر بالعداوة تجاه هذا البربري الهمجي الذي كان يعمل تقريبًا بناءً على غريزته كما يفعل الوحش البري، وحتى اللحظة الأخيرة كنت مصمما على إيجاد طريقة لتجنب ما بدا الآن حتميًا. كانت أجوار تقف إلى جانبي، سكينها جاهزة في يدها وابتسامة استخفاف على شفتيها عند اقتراحه أن يأخذها معه.

في اللحظة التي كنت فيها أظن أنه يجب علي إطلاق النار، انطلقت صرخات من النساء أسفلنا. رأيت الرجل يتوقف ويلتفت إلى الأسفل، وفعلت كما فعل، وأخذت عيني تلتقط الفزع وسببه. كانت النساء قد بدأوا في الخروج من البركة والعودة ببطء نحو الكهوف، عندما واجهن أسدًا كهوفًا ضخمًا كان واقفًا بينهن وبين جرفهن في وسط الطريق الضيق الذي يؤدي إلى البركة بين الصخور المتناثرة. وهن يصرخن، هرعن في فزع إلى البركة.

«لن ينفعهن ذلك»، قال الرجل، وكان في صوته نبرة من الإثارة. وتابع «لن ينفعهن، لأن الأسد سينتظر حتى يخرجن ويأخذ من يمكنه حمله بعيدًا؛ وهناك واحدة منهم»، أضاف بنبرة حزينة، «كنت آمل أن تتبعني قريبًا إلى الكرو-لو. لقد عشنا معا من البداية.» رفع رمحه فوق رأسه وأعده لرميه نحو الأسد وتمتم: «هي الأقرب إليه، سوف يأخذها، ولن تأتي إلى الكرو-لو أبدًا، ولن تكون هناك بعد ذلك. إنه أمر لا طائل منه! لا يوجد محارب يمكنه رمي سلاحه لمسافة كهذه.»

ولكن بينما كان يتحدث، كنت أصوب بندقيتي نحو الوحش الضخم أسفلنا؛ وعندما توقف عن الكلام، ضغطت على الزناد. لابد أن رصاصتي أصابت تمامًا النقطة التي استهدفتها، حيث حطمت عموده الفقري خلف كتفيه وتمزق قلبه، فأسقطته ميتًا في مكانه. للحظة، كانت النساء مرعوبات من دوي إطلاق النار كما كن مرعوبات من تهديد الأسد؛ لكن عندما رأين أن الصوت العالي قد دمر عدوهما، عدن بحذر ليفحصن الجثة.

كان الرجل، الذي توجهت نحوه فورًا بعد إطلاق النار، لئلا يواصل هجومه المهدد، يحدق في دهشة وإعجاب.

وسأل: «لماذا، إذا كنت تستطيع فعل ذلك، لم تقتلني منذ وقت طويل؟»

أجبته: «قلت لك، إنني لا أتحارب معك. لا أريد قتل رجال لا أتنازع معهم.»

لكن لم يتمكن من فهم الفكرة. ولكنه اعترف: «أستطيع الآن أن أصدق أنك لست من كاسباك، لأن لا كاسباكي كان ليتخلى عن فرصة كهذه.» ومع ذلك، اكتشفت لاحقًا أن هذا كان مبالغة، حيث أن قبائل الساحل الغربي وحتى الكرو-لو من الساحل الشرقي أقل ميلاً إلى العنف مما كان يعتقد.

«وسلاحك!» تابع. «لقد قلت كلمات صادقة عندما كنت أظن أنك تكذبين.»

ثم، فجأة قال: «لنكن أصدقاء!»

توجهت إلى أجوار وسألتها «هل أستطيع أن أثق به؟»

فأجابت: «نعم، لم لا؟ ألم يطلب أن نكون أصدقاء؟»

لم أكن في ذلك الوقت على دراية كافية بعادات أهل كاسباك لأعلم أن الصدق والولاء هما من أقوى خصائص هؤلاء الناس البدائيين. فهم ليسوا متمدنين بما يكفي ليصبحوا بارعين في النفاق والخيانة والمراوغة. هناك بالطبع بعض الاستثناءات.

قال المحارب: «يمكننا أن نذهب إلى الشمال معًا، سأقاتل من أجلك، ويمكنك أن تقاتل من أجلي. سأخدمك حتى الموت، لأنك أنقذت سو-آل، التي كنت قد اعتقدت أنها ماتت.» ألقى برمحه على الأرض وغطى عينيه بكلتا يديه. نظرت بتساؤل إلى أجوار، التي شرحت بما تستطيع أن هذا هو شكل من أشكال قسم الولاء لدى أهل كاسباك. لا يجب أن تخاف منه بعد الآن.»

سألت: «ماذا علي أن أفعل؟»

قالت لي: «أنزع يديه من أمام عينيه وأعد إليه رمحه»

فعلت كما طلبت، وكان الرجل يبدو مسرورًا جدًا. ثم سألت ما الذي كان يجب أن أفعله لو لم أكن أرغب في قبول صداقته. أخبرتني أنه لو كنت قد ابتعدت، فإن اللحظة التي أصبحت فيها خارج مجال رؤيته كنا سنصبح أعداءً مميتة مرة أخرى. فقلت «لكن كان بإمكاني قتله بسهولة وهو واقف هناك بلا دفاع!»

«نعم»، أجاب المحارب وتابع «لكن لا أحد بعقل سليم يغلق عينيه أمام من لا يثق به.»

كانت هذه مجاملة لائقة، وقد علمتني كم يمكنني الاعتماد على ولاء صديقي الجديد. كنت سعيد بوجوده معنا، لأنه كان يعرف المنطقة وكان من الواضح أنه محارب لا يهاب الموت. تمنيت لو كان بإمكاني تجنيد كتيبة مثله. بينما كانت النساء تقترب الآن من الجرف، اقترح تو-مار المحارب أن نسرع إلى الوادي قبل أن يتمكنوا من اعتراضنا، لأنهن قد يحاولن توقيفنا وكان من شبه المؤكد أنهن سيهاجمن أجوار. فاستعجلنا النزول في الطريق الضيق، ووصلنا إلى قاعدة الجرف قبل النساء بوقت قصير. نادييننا للتوقف، لكننا واصلنا السير بسرعة، دون رغبة في الوقوع في أي مشكلة معهن، لأنها كانت ستنتهي بموت بعضهن.

سرنا حوالي ميل عندما سمعنا من خلفنا شخصًا ينادي على تو-مار باسمه، وعندما توقفنا ونظرنا حولنا، رأينا امرأة تجري بسرعة نحونا. وعندما اقتربت منها، رأيت أنها كانت كائنًا جميلاً جدًا، وككل نساء كاسباك اللواتي رأيتهن، كانت على ما يبدو شابة.

قال تو-مار: «إنها سو-آل!هل هي مجنونة لأنها تتبعني هكذا؟»

في لحظة أخرى، توقفت الشابة وهي تلهث أمامنا. لم تولِ أي اهتمام لأجوار أو لي، لكنها كانت تلتهم تو-مار بعينيها اللامعتين وقالت: «لقد نهضت! لقد نهضت!»

«سو-آل!» كان كل ما استطاع الرجل قوله.

قالت الفتاة: «نعم»، لقد جاء النداء لي قبل أن أترك البركة؛ لكنني لم أكن أعرف أنه جاء لك. أستطيع أن أرى ذلك في عينيك، تو-مار، تو-مار! سنمضي معًا!» وألقت بنفسها بين ذراعيه.

كان منظرًا مؤثرًا جدًا، لأنه كان واضحًا أن هذين الاثنين كانا معًا منذ فترة طويلة وأن كل واحد منهما كان يعتقد أنهما سيفترقان بسبب تلك القاعدة الغريبة في التطور التي تسري في كاسباك والتي كانت تتكشف ببطء أمام عقلي الذي كان لا يزال في حالة من الدهشة. لم أكن في ذلك الحين أفهم حتى جزءًا ضئيلًا من هذه العملية العجيبة التي تجري أبدًا داخل حدود الجرف المحيط بكابورنا، ولا أعتقد أنني متأكد تمامًا مما أفهمه حتى الآن.

شرح تو مار لِسوال أنه أنا من قتلت أسد الكهف وأنقذت حياتها، وأن أجور هي امرأتي ومن ثم لها نفس الولاء الذي لي. في البداية، كانت أجور وسوال مثل قطتين غريبتين على سياج خلفي، لكن سرعان ما بدأتا تقبل كل منهما الأخرى في نوع من الهدنة المسلحة، ولاحقًا أصبحتا صديقتين حميمتين. كانت سوال فتاة رائعة الجمال، بنيتها قوية كالنمر من حيث القوة والانحناء، ومع ذلك كانت حلوة وذات أنوثة. أصبحت أنا وأجور نكن لها إعجابًا كبيرًا، وكانت هي، على ما أعتقد، تكن لنا نفس الشعور. كان تو مار رجلًا بكل معنى الكلمة، همجيًا إن شئت القول، لكنه مع ذلك كان رجلًا.

اكتشفنا أن السفر برفقة تو مار جعل رحلتنا أسهل وأكثر أمانًا، لذلك لم نتابع طريقنا وحدنا بينما تأخر المبتدئون في اقترابهم إلى أرض الكرو-لو لكي يتأهبوا بشكل صحيح في مسألة الأسلحة والملابس، بل بقينا معهم. وهكذا أصبحنا نعرف بعضنا البعض جيدًا إلى درجة أننا كنا نتطلع بحزن إلى اليوم الذي سيأخذون فيه أماكنهم بين رفاقهم الجدد وسنضطر لمتابعة الطريق وحدنا.

كان الأمر يشغل بال تو مار كثيرًا، لأن الكرو-لو من المحتمل أنهم لن يستقبلونا بطريقة ودية، وبالتالي كان يجب علينا تجنب هؤلاء الناس.

كان سيكون مفيدًا جدًا لنا لو استطعنا تكوين صداقات معهم، لأن بلادهم كانت مجاورة مباشرة لأراضي الجالوس. كانت صداقتهم تعني أن مخاطر أجر قد مرت فعليًا، وأنني قد أنجزت نصف رحلتي الطويلة. وفي ضوء ما مررت به، كنت كثيرًا ما أتساءل عن الفرصة التي أمتلكها لإتمام تلك الرحلة بحثًا عن أصدقائي. كلما تقدمت جنوبًا على الجانب الغربي من الجزيرة، كانت المخاطر تزداد فظاعة كلما اقتربت من أماكن وجود الزواحف الأكثر رهبة وموائل الألوس والهولو، التي كانت في نصف الجزيرة الجنوبي؛ ثم إذا لم أتمكن من العثور على أفراد فرقتي، فماذا سيحدث لي؟ لم أستطع العيش طويلًا في أي جزء من كاسباك الذي كنت أعرفه؛ بمجرد أن تنفد ذخيرتي، سأكون قد انتهيت.

كان هناك احتمال أن يستقبلني الجالوس؛ ولكن حتى أجور لم تستطع الجزم ما إذا كانوا سيفعلون ذلك أم لا، وحتى لو فعلوا، هل يمكنني أن أعيد خطواتي من البداية، بعد فشلي في العثور على شعبي، وأعود إلى أرض الجالوس في الشمال البعيد؟ كنت أشك في ذلك. ومع ذلك، كنت أتعلم من أجر، التي كانت أكثر أو أقل من متبعة لمذهب القدر، فلسفة كانت ضرورية في كاسباك من أجل راحة البال كما هي الإيمان للمسيحي المتدين في العالم الخارجي.

الفصل الرابع

كنا جالسين أمام نار صغيرة داخل مغارة آمنة في إحدى الليالي بعد فترة قصيرة من مغادرتنا لمساكن الجرف الخاصة بباند-لو، عندما طرحت «سو-آل» سؤالاً لم يخطر ببالي طرحه على أجور. سألتها لماذا تركت قومها وكيف وصلت إلى جنوب بلاد «الآلوس»، حيث وجدتها.

في البداية ترددت أجور في الشرح؛ لكن في النهاية وافقت، ولأول مرة سمعت القصة الكاملة عن أصلها وتجاربها. ولمنفعتني دخلت في تفاصيل أكبر مما كان سيكون ضرورياً لو كنت من أهل كاسباك.

«أنا من «كوس-آتا-لو»، بدأت أجور الحديث ثم التفتت نحوي. «الكوس-آتا-لو، يا «توم»، هي امرأة» (لو) «لم تأتِ من بيضة، ومن ثم صعدت من البداية.(كور سفا جو.) كنت طفلة على ثدي أمي. فقط بين الغالوس توجد مثل هذه الحالات، وعادة ما تكون نادرة. أما «الويرو»، فيأخذون معظمنا؛ لكن أمي أخفتني حتى وصلت إلى حجم لم يعد «الويرو» يميزني بسهولة عن من صعدوا من البداية، أتذكر كل من أمي وأبي على قدر ما أنا أستطيع. أبي هو الزعيم الأعلى بين الغالوس. اسمه جور، وكل من أبي وأمي جاءا من البداية؛ ولكن أحدهما، ربما أمي، قد أكمل الدورات السبع» (حوالي سبعمئة سنة)، نتيجة لذلك يمكن أن يكون نسلهما كوس-آتا-لو، أو يولد كما يولد جميع أطفال جنسكم، يا توم، كما أخبرتني أنه الحال. لذلك كنت مختلفة عن أقراني في أن أطفالنا ربما سيكونون مثلي، في حالة تطور أعلى، ولهذا كان رجال شعبي يسعون إليّ؛ لكن لم يجذبني

أحدهم. كان الأكثر إصراراً هو «دو-سين»، المحارب الضخم الذي كان والدي يخاف منه كثيراً، لأن من الممكن أن يقتلع منه زعامته للغالوس. لديه الكثير من الأتباع من الغالوس الجدد، أولئك الذين جاؤوا حديثاً من «الكرو-لو»، وكما أن هذه الفئة عادة ما تكون أقوى عدداً من الغالوس الأقدم، وكان طموح «دو-سين» لا حدود له، فقد كنا ننتظر منذ فترة طويلة أن يجد سبباً ليفسد العلاقة مع جور الزعيم الأعلى، والدي. وكانت هناك تعقيدات أخرى، مثل حقيقة أن «دو-سين» كان يريدني، بينما كنت لا أريده، ثم وصل إلى أذن والدي دليل على أنه كان متحالفاً مع «الويرو». جاء صياد، عاد متأخراً في الليل، يرتجف، وأخبر والدي أنه رأى «دو-سين» وهو يتحدث مع «ويرو» في مكان نائي بعيد عن القرية، وقد سمع بوضوح الكلمات: «إذا ساعدتني، سأساعدك-سأسلمك جميع الكوس-آتا-لو بين الغالوس، الآن وفي المستقبل؛ ولكن من أجل تلك الخدمة يجب عليك قتل «جور» الزعيم الأعلى وإحداث الرعب والارتباك بين أتباعه.» عندما سمع والدي هذا، غضب؛ ولكنه كان خائفاً أيضاً-خائفاً علي، أنا الكوس-آتا-لو. ناداني وقال لي ما سمعه، مبيناً طريقتين يمكننا من خلالهما إحباط «دو-سين». الأولى هي أن أذهب إليه كرفيقة له، وبعد ذلك سيكون متردداً في تسليمي إلى «ال ويرو» أو في الاستمرار في الاتفاق الشرير الذي عقده-اتفاق كان سيفسد نسلهم، الذي من المحتمل أن يكون مثلي، وأكون والدتهم. أما البديل فكان الهروب حتى يتم التغلب على «دو-سين» ومعاقبته. اخترت البديل وهربت نحو الجنوب. وراء حدود بلاد الغالوس، هناك خطر قليل من «الويرو»، الذين يطلبون عادةً فقط الغالوس من أعلى

الطبقات. وهناك سببان ممتازان لذلك: الأول هو أنه منذ بداية الزمن كان هناك غيرة بين «الويرو» والغالوس حول من سيسيطر على العالم في النهاية. يبدو أن من المتفق عليه بشكل عام أن الجنس الذي يصل أولاً إلى مرحلة تطور تمكنه من إنتاج نسل من نوعه وبالجنسين، يتسيدون على جميع المخلوقات الأخرى. بدأ الويرو أولاً في إنتاج جنسهم الخاص، ومنذ ذلك الحين توقفت عملية التطور من جالو إلى ويرو تدريجيًا حتى أصبحت الآن غير معروفة. ولكن الويرو ينتجون ذكورًا فقط، ولهذا السبب يختطفون إناثنا الصغيرات، وبسرقة الكوس-أتا-لو يزيدون من فرصهم المستقبلية لإنتاج كلا الجنسين، وفي نفس الوقت يقللون فرصنا. الجالو ينتجون بالفعل ذكورًا وإناثًا، ولكن الويرو يراقبوننا بحذر شديد بحيث لا يصل إلا عدد قليل من الذكور إلى مرحلة الرجولة، وأقل من ذلك بكثير هو عدد الإناث اللواتي لا يتم اختطافهن. إنها حقًا حالة غريبة، لأن أعداءنا الأكثر شراسة يكرهوننا ويخافوننا، ولكنهم لا يجرؤون على إبادتنا، لأنهم يعلمون أنهم أيضًا سينقرضون بدوننا. آه، لو تمكنا من البداية، فأنا متأكدة أنه عندما يصبح الجميع كوس-أتا-لو حقيقيين، سيكون لدينا أخيرًا العرق المسيطر الحقيقي الذي سيجبر العالم بأسره على الخضوع.»

كانت أجور دائمًا تتحدث عن العالم كما لو أنه لا يوجد شيء خارج كاسباك. لم تستطع أن تدرك حقيقة أصلي أو أن هناك شعوبًا لا حصر لها خارج جروفها الصارمة. بدا أنها تعتقد أنني جئت من عالم مختلف تمامًا. أين كان ذلك العالم وكيف جئت إلى كاسباك كانا أمورًا تتجاوز فهمها، ولم تشأ أن تشغل عقلها الجميل بها.

واصلت حديثها: « حسنا، لهذا هربت لأختبئ، معتزمة عبور الجروف جنوب جالو والعثور على ملاذ في بلاد الكرو-لو. كان ذلك خطيرًا، ولكن لم تكن هناك طريقة أخرى. في الليلة الثالثة، لجأت إلى كهف كبير في الجروف على حافة بلادي. في اليوم التالي، كنت سأعبر إلى بلاد الكرو-لو، حيث شعرت أنني سأكون في أمان نسبي من الويرو، رغم أنني سأظل مهددة بمخاطر لا حصر لها. ومع ذلك، بالنسبة للكوس-أتا-لو، فإن أي مصير أفضل من الوقوع في أيدي الويرو . في الليلة الثالثة، لجأت إلى كهف كبير في الجروف على حافة بلادي؛ وفي اليوم التالي، كنت سأعبر إلى أرض الكرو-لو، حيث شعرت بأنني سأكون في أمان نسبي من الويرو، رغم المخاطر العديدة التي كانت تهددني. ومع ذلك، بالنسبة لأي كوس-أتا-لو، فإن أي مصير أفضل من الوقوع في قبضة الويرو المخيفين، الذين لا يعود أحد من أرضهم. كنت نائمة بسلام لبضع ساعات عندما أيقظني صوت خافت داخل الكهف. كان القمر يضيء بسطوع، ينير المدخل، ورأيت ظلًا مرعبًا لويرو. لم يكن هناك مهرب. الكهف كان ضحلًا، ومدخله ضيق. بقيت بلا حراك، متأملة بأمل يائس أن يكون المخلوق قد توقف هنا فقط للراحة وقد يغادر دون أن يكتشفني. لكنني كنت أعلم طوال الوقت أنه جاء يبحث عني. انتظرت بالكاد كنت أتنفس، وأنا أشاهد الكائن يزحف بحذر نحوي، وعيناه الكبيرتان تتوهجان في ظلام الكهف. وأخيرًا، أدركت أن تلك العيون كانت موجهة نحوي، لأن الويرو يستطيع الرؤية في الظلام أفضل حتى من الأسد أو النمر. عندما لم يبق بيننا سوى بضع أقدام، قفزت على قدمي واندفعت بجنون نحو مهددي في محاولة يائسة للتملص منه والوصول إلى

العالم الخارجي. كان ذلك جنونًا بالطبع، لأنه حتى لو نجحت مؤقتًا، فإن الويرو كان سيتبعني وينقض عليّ من فوق. كما حدث، مد يده وأمسكني، ورغم أنني قاومت، تغلب عليّ. أثناء النزال، تمزق رداؤه الأبيض الطويل تقريبًا، مما أغضبه بشدة، فارتجف وخفق بجناحيه بغضب. سألني عن اسمي، لكنني لم أجب، مما زاد من غضبه. أخيرًا، جرني إلى مدخل الكهف، رفعني بين ذراعيه، نشر جناحيه الكبيرين، وقفز في الهواء، وبدأ يحلق في ظلام الليل بشكل كئيب. رأيت المناظر الطبيعية المضيئة بضوء القمر تتلاشى تحت قدمي، ثم وجدنا أنفسنا فوق البحر، متجهين إلى «أو-أوه»، أرض الويرو. كانت الخطوط الباهتة لـ«أو-أوه» تظهر أسفلنا عندما سمعنا من فوقنا صوت خفق أجنحة عملاقة. التفت الويرو وأنا في نفس اللحظة لنرى زوجًا من الزواحف الطائرة العملاقة «جو-أووس» (التيروداكتيلات) ينقضان نحونا. هبطنا تقريبًا إلى مستوى سطح البحر، ثم اندفعنا جنوبًا في محاولة لتجاوز مطاردينا. رغم الوزن الهائل لهذه المخلوقات، إلا أنها تطير بسرعة؛ ومع ذلك، فإن الـ«ويرو» أسرع. حتى مع وزني الإضافي، تمكن المخلوق الذي حملني من الحفاظ على تقدمه، لكنه لم يستطع زيادته. تسابقنا عبر الليل جنوبًا على طول الساحل بسرعة تفوق أسرع الرياح. أحيانًا كنا نصعد إلى ارتفاعات شاهقة حيث الهواء بارد والعالم أسفلنا يظهر ككتلة ضبابية باهتة، لكن دائمًا ما كان الـ«جو-أوس» يلاحقوننا.

كنت أعلم أننا قطعنا مسافة كبيرة، إذ كانت الرياح التي تعصف بوجهي تشهد على سرعة تقدمنا، لكن لم يكن لدي فكرة عن مكاننا حتى أدركت في النهاية أن الـ«ويرو» بدأ يضعف. تمكن أحد

الـ«جو-أوس» من اللحاق بنا واعترض طريقنا، مما أجبر آسري على التوجه نحو الساحل. دفعوه أكثر فأكثر نحو اليسار؛ وانخفض طيرانه تدريجيًا. أصبح تنفسه أكثر إجهادًا وضربات جناحيه القوية أضعف. كنا على ارتفاع لا يتجاوز عشرة أقدام عن الأرض عندما لحقوا بنا، عند أطراف غابة. أمسك أحدهم بجناحه الأيمن، وفي محاولة لتحرير نفسه، أفلت قبضته عني وأسقطني على الأرض. مثل غزال مذعور، قفزت على قدمي وركضت نحو ملاذ الغابة الذي يوفر لي الحماية، حيث لا يمكن لأي منهما ملاحقتي أو الإمساك بي. ثم التفت للخلف لأرى مخلوقين زاحفين يمزقان آسري إلى أشلاء ويلتهمانه في الحال. كنت قد نجوت؛ ومع ذلك شعرت أنني تائهة. لم أكن أعرف مدى بعدي عن بلاد «الجالوس»، ولم يبدو أن بإمكاني الوصول إليها بأمان.

كان الفجر قد بدأ يبزغ؛ وسرعان ما ستخرج الحيوانات المفترسة لصيد أول فرائسها؛ ولم أكن مسلحة إلا بسكين. من حولي كان منظر غريب من الزهور، والأشجار، والأعشاب، كانت كلها مختلفة عن تلك الموجودة في عالمي الشمالي. وبعد فترة، ظهر أمامي مخلوق قبيح بقدر قبح الـ«ويرو» رجل مشعر بالكاد يمشي منتصبًا. ارتعبت ثم فررت. هربت عبر المخاطر المروعة التي عانى منها أجدادي في المراحل الأولى من تطورهم البشري، ودائمًا كان هذا الوحش المشعر يلاحقني. لاحقًا انضم إليه آخرون من نوعه. كانوا رجالًا بلا لغة، الـ«ألوس»، الذين أنقذتني منهم يا «توم». منذ تلك اللحظة، تعرف بقية مغامراتي، ومنذ البداية، كنت على استعداد لتحمل كل ذلك مجددًا لأن كل هذا قادني إليك!»

كان من اللطيف جدًا أن تقول ذلك، وقد قدرته. شعرت أنها فتاة لطيفة جدًا، وصداقة مثلها ستكون موضع ترحيب من أي شخص؛ لكن تمنيت لو أن تلك القشعريرة الغريبة التي أشعر بها عندما تلمسني لا تحدث. كان ذلك مزعجًا للغاية لأنه يذكرني بالحب؛ وكنت أعلم أنني لا يمكن أن أحب هذه البربرية غير المكتملة. كنت مهتمًا جدًا بروايتها عن الـ»ويرو«، الذي كنت أعتقد حتى ذلك الحين أنه مجرد مخلوق أسطوري؛ لكن أجور كانت ترتجف لمجرد ذكر الاسم، فلم أجرؤ على الضغط عليها بشأن الموضوع، وبالتالي بقي الـ»ويرو« لغزًا بالنسبة لي.

ورغم اهتمامي الكبير بـ»ويرو«، إلا أنني لم أكن أملك وقتًا كافيًا للتفكير فيه، حيث كانت ساعات يقظتنا مليئة بصراعات البقاء، التي تشكل الشغل الشاغل لشعب «كاسباكي». كان «تومار» و»سوأل» قد أصبحا جاهزين تقريبًا للانضمام إلى مجتمع «كرو-لو»، ولذلك كان عليهما أن يتركانا، إذ لم نكن نستطيع مرافقتهما دون تعريض أنفسنا لخطر كبير والمخاطرة بهما؛ لكنهما أقسما أن يكونا دائمًا أصدقاء لنا وأكدوا لنا أنه في أي وقت نحتاج مساعدتهما، علينا فقط أن نطلبها. ولم أستطع الشك في صدقهما، حيث كنا قد لعبنا دورًا كبيرًا في مساعدتهما للوصول بأمان إلى قريتهما «كرو-لو».

كان هذا يومنا الأخير معًا. في فترة ما بعد الظهر، كان علينا أن نفترق، حيث كان من المقرر أن يتوجه تو-مار وسو-ال مباشرة إلى قرية كرو-لو، بينما كنت أنا وأجور نقوم بالتفاف لتجنب أي صدام مع الرماة. بدا على تو-مار وسو-ال القلق مع اقتراب الوقت لدخولهم قرية شعبهم الجديد، ورغم ذلك كانا فخورين وسعيدين. أخبرانا

بأنهما سيحظيان بترحيب جيد، حيث تُستقبل الإضافات الجديدة لأي قبيلة بترحاب كبير، خاصةً أن القبائل الأعلى مرتبة عددها أقل كلما ابتعدنا عن نقطة البداية.

الجزء الجنوبي من الجزيرة يعج بالكائنات المعروفة باسم هو-لو، أو القردة، يليهم الألوس، وهم أقل عددًا، ثم البو-لو، الذين يقل عددهم عن الألوس، وبعدهم ستو-لو. كلما تقدمنا في التسلسل، يقل العدد حتى نصل إلى كرو-لو، الذين هم الأقل عددًا. لكن مع الغالوس، ينعكس هذا القانون، حيث يفوق عددهم الكرو-لو. وأوضحت أجور أن السبب هو أن التطور يتوقف عمليًا مع الغالوس، فلا يتركون مجتمعهم بسبب ذلك. حتى الكوس-أتا-لو يُعتبرون غالوس ويظلون معهم. بالإضافة إلى ذلك، تأتي الغالوس من السواحل الغربية والشرقية.

كذلك، في الطرف الشمالي من الجزيرة، يقل عدد الزواحف المفترسة وأفراد عائلة القطط الكبيرة التي تسبب دمارًا للحياة في المناطق الجنوبية. بدأت أفهم تدريجيًا فكرة التطور لدى الكاسباكيين، والتي جزئيًا تفسر غياب الأطفال بين القبائل التي رأيتها حتى الآن. حيث يمر الكاسباكي، خلال حياته الواحدة، بمراحل تطور مختلفة مرت بها البشرية عبر العصور. لكن السؤال الذي ظل يحيرني هو: ما الذي يخلق الحياة في البداية؟ كور سفا جو؟

لاحظت أنه بينما كنا نسافر شمالاً من أرض الألوس، كانت الأرض ترتفع تدريجيًا حتى أصبحنا الآن على ارتفاع مئات الأقدام فوق

مستوى البحر الداخلي. وأخبرتني أجور أن منطقة الغالوس أكثر ارتفاعًا وبرودة، وهو ما يفسر قلة وجود الزواحف هناك. التغير في شكل وأنواع الحيوانات الدنيا كان أكثر وضوحًا من مراحل تطور البشر. فالحصان الصغير، أو الإكا، أصبح في منطقة كرو-لو مهرًا قويًا مكسوًا بالشعر. رأيت عددًا أكبر من الأسود والنمور الصغيرة، على الرغم من بقاء الكثير من الأنواع الكبيرة، بينما ظهر الماموث الصوفي بشكل أكثر وضوحًا، إلى جانب عدة أنواع من اللابيرنثودونتا. وكانا تو-مار وسو-ال قد ودعانا في منتصف الظهيرة. لم نكن بعيدين عن قرية كرو-لو؛ في الواقع، اقتربنا منها أكثر مما كنا ننوي. قررت أنا وأجور أن ننحرف باتجاه البحر بينما توجه رفاقنا مباشرة للقاء زعيم كرو-لو.

سرنا أنا وأجور لمسافة ميل أو ميلين تقريبًا، وكنا على وشك الخروج من غابة كثيفة عندما رأيت ما جعلني أتراجع إلى مكان خفي وأدفع أجور خلفي. ما رأيته كان مجموعة من محاربي بان-لو، رجال ضخمين يبدون شرسين. من اتجاه مسيرهم، رأيت أنهم يعودون إلى كهوفهم، وكنت أعلم أننا إذا بقينا في مكاننا، سيمرون دون أن يلاحظونا.

بعد لحظات اقتربت مني أجور وقالت هامسة: «لديهم أسير. إنه كرو-لو.»

ثم رأيته، أول كرو-لو مكتمل النمو أراه. كان رجلاً حسن المظهر، طويل القامة ومستقيمًا، يحمل نفسه بوقار ملكي. كان تو-مار شابًا وسيمًا، لكن هذا الكرو-لو أظهر في كل تفاصيله الجسدية مستوى

أعلى من التطور. كان هذا الرجل على وشك دخول نطاق الكرو-لو، ويبدو لي أنه قريب جدًا من المرحلة التالية في تطوره، والتي ستجعله غالوشا يحظى بالحسد.

«هل سيقتلونه؟» همست لأجور.

«رقصة الموت»، أجابت، فارتجفت، إذ أنني بالكاد نجوت من المصير نفسه. بدا قاسيًا أن يموت شخص اجتاز بأمان كل مراحل التطور البشري المروعة في كاسبك، عند عتبة هدفه النهائي. رفعت بندقيتي وصوبت بعناية نحو أحد محاربي الباند-لو. إذا أصبته، سأصيب اثنين، لأن آخر كان خلفه مباشرة.

لمست أجور ذراعي وقالت: «ماذا ستفعل؟ إنهم جميعًا أعداؤنا.»

«سأنقذه من رقصة الموت، سواء كان عدوًا أم لا»، أجبت، وضغطت على الزناد. ومع صوت الطلقة، سقط الاثنان أرضًا على وجهيهما. ناولت أجور بندقيتي، وسحبت مسدسي وتقدمت إلى العلن أمام المجموعة المذهولة. لم يفر الباند-لو كما فعلت بعض الطبقات الأدنى من سكان كاسبك عند سماع صوت البندقية. بدلاً من ذلك، أطلقوا صرخات حرب شيطانية، ورفعوا رماحهم فوق رؤوسهم وهجموا نحوي. وقف الكرو-لو صامتًا، مثل تمثال، يراقب ما يحدث. لم يحاول الهروب، رغم أن قدميه لم تكونا مقيدتين ولم يبقَ أي محارب لحراسته. كان هناك عشرة من الباند-لو يهاجمونني. أسقطت ثلاثة منهم بمسدسي بسرعة كما يعد الرجل حتى ثلاثة، ثم سمعت صوت بندقيتي بالقرب من كتفي الأيسر، وسقط آخر وتدحرج على الأرض. أجور الشجاعة! لم تطلق طلقة واحدة في حياتها من قبل،

رغم أنني علمتها كيفية التصويب والضغط على الزناد بدلًا من سحبه. لقد مارست هذه المهارات الجديدة كثيرًا، ولكنني لم أعتقد أنها ستصبح قناصة بهذه السرعة.

مع إصابة ستة من رفاقهم بسهولة، اختبأ الستة الآخرون خلف بعض الشجيرات المنخفضة وبدأوا في عقد مجلس حرب. كنت أتمنى لو يغادرون، إذ لم يكن لدي ذخيرة لأهدرها، وكنت أخشى أنه إذا شنوا هجومًا آخر، فإن بعضهم سيصل إلينا، لأنهم كانوا بالفعل قريبين جدًا. فجأة، نهض أحدهم وأطلق رمحه. كان ذلك أعظم عرض للسرعة رأيته في حياتي. بدا لي وكأنه بالكاد وقف في وضع مستقيم عندما كان السلاح قد وصل منتصف طريقه، يندفع كالسهم نحو أجور. حينها، مع تعرض حياتها الصغيرة للخطر، أطلقت أفضل طلقة في حياتي! لم أهدف بوعي؛ بدا وكأن عقلي الباطن، مدفوعًا بقوة أعظم حتى من غريزة البقاء، وجه يدي. كانت أجور في خطر! ومع الفكرة، رفع مسدسي نفسه، وانطلقت طلقة وميضها يخترق المسافة، وتحطم رأس الرمح وانحرف عن مساره.

مع عويل من الخيبة، نهض الستة الآخرون من مخبئهم واندفعوا نحو الجنوب.

استدرت نحو أجور التي كانت شاحبة جدًا وعيناها متسعتان، إذ كانت أصابع الموت القابضة قد كادت أن تمسك بها؛ لكن ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيها، ونظرة فخر كبيرة ظهرت في عينيها. قالت: «تومي!» وأخذت يدي بين يديها. كان هذا كل شيء-«تومي!» وضغطة يد. تومي! شيء ما تحرك في صدري. هل كان ابتهاجًا أم

ارتباكًا؟ مستحيل! استدرت بعيدًا تقريبًا بحدة.

«تعالي!» قلت، وتقدمت نحو أسير الكرو-لو.

وقف الكرو-لو يراقبنا بلا مبالاة جامدة. أفترض أنه توقع أن يُقتل؛ لكن إن كان ذلك، لم يظهر أي علامة خارجية تدل على الخوف. كانت عيناه، التي عكست أكبر اهتمامه، مثبتة على مسدسي أو البندقية التي لا تزال أجور تحملها. قطعت قيوده بسكيني. بينما فعلت ذلك، ظهرت على وجهه المهيب والمتحفظ لمسة من الدهشة أضفت عليه حيوية. نظر إليّ نظرة متفحصة.

سأل: «ماذا ستفعل بي؟»

أجبت: «أنت حر، عد إلى ديارك إذا أردت.»

تساءل: «لماذا لا تقتلني؟ أنا منزوع السلاح»

«لماذا أقتلك؟ لقد خاطرنا بحياتي وحياة هذه الشابة لإنقاذ حياتك. لماذا إذن آخذها الآن؟» بالطبع، لم أقل «الشابة» لأن هذا المصطلح لا يوجد ما يعادله في لغة كاسبك؛ لكنني أسمح لنفسي بقدر كبير من الحرية عند ترجمة المحادثات الكاسبكية. أن أتحدث دائمًا عن فتاة جميلة على أنها «هي» قد يكون دقيقًا، لكنه يبدو بعيدًا عن اللباقة.

ركز الكرو-لو نظرته الثابتة عليّ لمدة دقيقة كاملة على الأقل، ثم تحدث مرة أخرى. وسأل: «من أنت، أيها الرجل ذو الجلد الغريب؟ رفيقتك غالو، لكنك لست غالو ولا كرو-لو ولا باند-لو، ولا أي نوع من الرجال رأيته من قبل. أخبرني من أين جاء هذا المحارب العظيم

والعدو الكريم.»

أجبته: «لكن يكفي أن أقول إنني لست من كاسبك. أنا غريب هنا، ودع هذا يتضح: لست عدواً. ليس لدي أي رغبة في أن أكون عدواً لأي رجل في كاسبك، باستثناء المحارب الغالو دو-سين.»

«دو-سين!» قال بدهشة وتابع كلامه «أنت عدو دو-سين؟ ولماذا؟»

أجبت: «لأنه يريد إيذاء أجور، هل تعرفه؟»

قالت أجور: «لا يمكن أن يعرفه، لقد ارتقى دو-سين من الكرو-لو منذ زمن طويل، وأخذ اسمًا جديدًا، كما يفعل الجميع عند دخولهم نطاقًا جديدًا. لا يمكنه أن يعرفه، إذ لا يوجد تواصل بين الكرو-لو والغالو.»

ابتسم المحارب. «لم يرتق دو-سين منذ زمن بعيد لدرجة أنني لا أذكره جيدًا، ومؤخرًا أخذ على عاتقه انتهاك القوانين القديمة لكاسبك؛ فقد تواصل مع الكرو-لو. دو-سين يريد أن يكون زعيم الغالو، وقد جاء إلى الكرو-لو طلبًا للمساعدة.»

كانت أجور مذهولة. الأمر لا يصدق. لم يحدث قط أن كانت هناك علاقات ودية بين الكرو-لو والغالو؛ فحسب قوانين كاسبك الوحشية، كانوا أعداءً ألداء، لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكن به الحفاظ على فردية الأعراق المختلفة.

سألت أجور: «هل سينضم الكرو-لو إليه؟ هل سيغزون أرض جور، والدي؟»

أجاب المحارب: «الشبان من الكرو-لو يؤيدون الخطة، إذ يعتقدون

أنهم سيصبحون غالو على الفور. يأملون في تجاوز السنوات الطويلة من التغيير التي يجب أن يمروا بها في الظروف العادية، وأن يصبحوا غالو بخطوة واحدة. نحن من كبار السن في الكرو-لو نقول لهم إنه حتى لو احتلوا أرض الغالو وارتدوا جلود وزينة الشعب الذهبي، فلن يصبحوا غالو حتى يحين الوقت الذي ينضجون فيه للارتقاء. ونقول لهم أيضًا إنه حتى في ذلك الوقت، لن يصبحوا عرقًا غالو حقيقيًا، لأن هناك من بينهم من لن يتمكن أبدًا من الارتقاء. من المقبول أن نغزو بلاد الغالو أحيانًا للنهب، كما يفعل شعبنا؛ لكن محاولة غزوها والاحتفاظ بها هي جنون. أما أنا، فقد كنت راضيًا عن الانتظار حتى يأتي النداء إلي. أشعر أنه لا يمكن أن يطول الآن.»

«ما اسمك؟» سألت أجور.

«تشال-آز» أجاب الرجل.

قالت أجور:»أنت زعيم الكرو-لو؟«.

أجاب شال-آز:»لا، أل-تان هو زعيم الكرو-لو في الشرق«،

«وهو ضد هذا المخطط لغزو بلاد والدي؟»

«للأسف، هو إلى حد ما مؤيد ل، لأنه بات مقتنعًا بأنه باتو. لقد كان زعيمًا منذ زمن طويل، قبل أن أصعد من الباند-لو، ولم أر أي تغيير فيه طوال تلك السنين. في الواقع، لا يزال يبدو أشبه بالباند-لو أكثر من الكرو-لو. ومع ذلك، هو زعيم جيد ومحارب عظيم، وإذا أقنعه دو-سين بقضيته، فقد يجد الجالوس أنفسهم تحت قيادة زعيم من الكرو-لو قريبًا-دو-سين وغيرهم أيضًا، لأن أل-تان لن يقبل أبدًا بأن

يكون في موقع تابع، وبمجرد أن يضع قدمًا منتصرة في جالو، لن يسحبها دون قتال.»

سألتهم عن معنى كلمة «باتو»، حيث لم أسمعها من قبل. الترجمة الحرفية تعني «منتهٍ» أو «مكتمل»، كما تُستخدم لوصف التقدم التطوري لشخص ما في كاسبك. ومن خلال هذا التفسير، تكشف حقيقة مثيرة للاهتمام مفادها أن ليس كل فرد قادر على التقدم عبر جميع المراحل للوصول إلى جالو. بعضهم لا يتجاوز مرحلة الألو، وآخرون يتوقفون عند بو-لو، أو ستو-لو، أو باند-لو، أو كرو-لو. الهولو من الجيل الأول قد يصعد ليصبح ألو، والألو من الجيل الثاني قد يصبح بو-لو، بينما يتطلب الأمر ثلاثة أجيال من البو-لو ليصبحوا باند-لو، وهكذا حتى يجب أن يكون أحد والدي الكرو-لو من الجيل السادس.

لم يكن الأمر واضحًا لي تمامًا حتى مع هذا التفسير، حيث لم أستطع فهم كيف يمكن أن تكون هناك أجيال مختلفة من الشعوب التي لا يبدو أن لديها نسلًا. ومع ذلك، بدأت أفهم قليلًا القوانين الغريبة التي تحكم التكاثر والتطور في هذه الأرض العجيبة. كنت أعرف بالفعل أن البرك الدافئة الموجودة دائمًا بالقرب من أماكن إقامة القبائل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمخطط التطور في كاسبك، وأن الغمر اليومي للإناث في المياه الخضراء اللزجة كان استجابة لقانون طبيعي، لأن لا متعة ولا نظافة يمكن أن تُستمد من ما يبدو تقريبًا كطقس ديني. ومع ذلك، بقيت في حيرة؛ ولا يبدو أن أجور تستطيع إيضاح الأمر لي، لأنها كانت مضطرة لاستخدام كلمات لم أتمكن من فهمها وكان من المستحيل عليها شرح معانيها.

بينما كنا نتحدث، فوجئنا فجأة بضجة في الشجيرات وبين جذوع الأشجار التي تحيط بنا، وفي الوقت ذاته ظهر مئة من محاربي الكرو-لو في دائرة خشنة حولنا. استقبلوا شال-آز بوابل من الأسئلة بينما كانوا يقتربون ببطء من جميع الاتجاهات، وأقواسهم الثقيلة مزودة بسهام طويلة وحادة. نظروا إلى أجور وإليّ بشهوة في حالة، وريبة في الأخرى؛ لكن بعد أن سمعوا قصة شال-آز، أصبحت مواقفهم أكثر وُدًا. رجل ضخم البنية تحدث بكل الكلام. كان جبلًا من رجل، ومع ذلك كان متناسقًا تمامًا.

«هذا هو أل-تان الزعيم»، قال شال-آز كتعريف. ثم أخبر شيئًا من قصتي، وطرح أل-تان عليّ العديد من الأسئلة حول الأرض التي أتيت منها. تجمع المحاربون حولنا عن قرب للاستماع إلى إجاباتي، وكانت هناك العديد من تعبيرات عدم التصديق بينما كنت أتحدث عن ما كان بالنسبة لهم عالمًا آخر-عن اليخت الذي جلبني عبر مياه شاسعة، وعن الطائرة التي حملتني مثل جو-أو فوق قمة المنحدرات الحاجزة.

كان ذكر الطائرة المائية هو ما أثار الشكوك الصريحة الأولى، ثم جاءت أجور للدفاع عني وصاحت: «لقد رأيتها بعيني! رأيته يطير في الهواء وهو يقاتل جو-أو. كان الألو يطاردونني، ورأوها وهربوا.»

«لمن هذه المرأة؟» سأل أل-تان فجأة، وعيناه مثبتتان بغضب على أجور.

للحظة عمّ الصمت. نظرت أجور إليّ بتعبيرٍ متألم ومليء بالتساؤل على وجهها. «لمن هذه المرأة؟» كرر أل-تان.

«هي لي»، أجبت، رغم أنني لا أستطيع أن أوضح ما الذي دفعني لقول ذلك. ولكن بعد لحظة، كنت سعيدًا أنني قلتها، لأن وجه أجور المليء بالفخر والسعادة كان مكافأة كافية.

حدّق أل-تان في أجور لعدة دقائق ثم التفت إلي. «هل تستطيع الحفاظ عليها؟» سأل بنبرة تتخللها لمسة من السخرية.

وضعت كفي على قبضة مسدسي وأجبته بأنني أستطيع. لاحظ الحركة، وحدّق في مقبض المسدس الذي كان يبرز من جرابه، ثم ابتسم. بعد ذلك، استدار ورفع قوسه الكبير، وضع سهمًا، وسحب الوتر إلى الخلف بقوة. وقف محاربوه بابتسامات ساخرة على وجوههم وهم يراقبونه بصمت.

كان قوسه الأطول والأثقل بينهم جميعًا. لا بد أنه رجل قوي جدًا ليتمكن من سحب وتره، ومع ذلك، قام أل-تان بسحب الوتر حتى لامس رأس السهم إصبعه الأيسر بسهولة تامة. ثم رفع السهم لمستوى عينه اليمنى، واحتجزه هناك للحظة، وأطلقه. عندما توقّف السهم، كان نصفه بارزًا من الجهة الأخرى لشجرة يبلغ قطرها ست بوصات، على بعد خمسين قدمًا. التفت أل-تان ومحاربوه نحوي بتعبيرات غامرة بالرضا على وجوههم، ثم، وكأنه يريد أن يُظهر لأجور، بدأ الزعيم بالتبختر ذهابًا وإيابًا، متأرجحًا ذراعيه وكتفيه الكبيرين كما لو كان ملاكمًا مخمورًا في قاعة رقص شاطئية.

رأيت أن الرد كان ضروريًا، لذا بحركة واحدة، سحبت مسدسي، صوبته نحو السهم الذي كان لا يزال يرتجف، وضغطت على الزناد. عند سماع صوت الطلقة، قفز محاربو الكرو-لو إلى الخلف ورفعوا

أسلحتهم؛ لكن بما أنني كنت أبتسم، استعادوا شجاعتهم وخفضوها مجددًا، متبعين نظراتي نحو الشجرة؛ حيث اختفى سهم زعيمهم، وبدا في الجذع ثقب دائري صغير يشير إلى مسار الرصاصة. لقد كان تصويبًا جيدًا، إذا قلت ذلك بنفسي، لكن الضرورة هي التي قادت الرصاصة؛ كان عليّ أن أصيب هدفًا جيدًا لأثبت موقفي فورًا بين هؤلاء الكاسباكيين الوحشيين والمحاربين من المجال السادس. كان واضحًا أن ذلك أثّر فيهم، ولكنني لست متأكدًا تمامًا من أن ذلك ساعد موقفي مع أل-تان. فبينما كان قد يتحملني كفضول مثير وغير مؤذٍ، بدا الآن، من خلال التغيير في تعبيره، أنه يراني في ضوء جديد وغير مُحبذ. ولا أستغرب ذلك، مع معرفتي بهذا النوع، إذ جعلته يبدو سخيفًا أمام محاربيه، متفوقًا عليه في لعبته الخاصة. أي ملك، سواء كان همجيًا أم متحضرًا، يمكن أن يتسامح مع مثل هذا التجرؤ؟ رأيت عبوسه القاتم، فاعتبرت أنه من الحكمة، خاصة من أجل أجور، إنهاء الحديث والاستمرار في طريقنا. لكن عندما حاولت القيام بذلك، أوقفنا أل-تان بإشارة، واحتشد محاربوه حولنا. «ما معنى هذا؟» سألت، وقبل أن يتمكن أل-تان من الرد، رفع شال-آز صوته للدفاع عنا.

«هل هذه هي امتنان زعيم الكرو-لو، يا أل-تان؟» سأل. «لمن خدمك بإنقاذ أحد محاربيك من العدو-من الموت في رقصة الباند-لو؟»

ظل أل-تان صامتًا للحظة، ثم ارخى حاجباه، وظهرت على وجهه محاولة خفيفة لتعبير ودي وهو يقول: «لن يُصاب الغريب بأي أذى. أردت فقط أن أحتجزه ليتم تكريمه الليلة في قرية أل-تان زعيم

الكرو-لو. في الصباح، يمكنه أن يذهب في طريقه. أل-تان لن يمنعه.»

لم أكن مطمئنًا تمامًا؛ لكنني أردت رؤية داخل قرية الكرو-لو، وعلى أي حال، كنت أعلم أنه إذا كان أل-تان ينوي الغدر، فلن أكون في سلطته صباحًا أكثر مما كنت عليه الآن-بل قد أجد خلال الليل فرصة للهرب مع أجور. في اللحظة التي أصبح فيها من المستحيل أن يهرب أي منا دون أن يتعرض لأذى من المحاربين المحيطين بنا، قررت أن أقبل دعوته بسرعة وبأدب، لكي أنتزع عنه أي فكرة قد تراوده بشأن شكوك قد أحتفظ بها حيال صدقه. كانت سعادته واضحة، وعندما انطلقنا نحو قريته، سار بجانبي، يطرح الكثير من الأسئلة عن البلد الذي جئت منه، وشعوبه وعاداتهم. بدا متعجبًا للغاية من حقيقة أننا يمكننا السير في الخارج سواء في النهار أو الليل دون خوف من أن تلتهم من قبل الوحوش البرية أو الزواحف المتوحشة، وعندما أخبرته عن الجيوش الكبيرة التي نمتلكها، لم يستطع عقله البسيط استيعاب الحقيقة بأن تلك الجيوش موجودة فقط من أجل قتل البشر.

قال: «أنا سعيد لأنني لا أعيش في بلدكم بين هؤلاء الشعوب المتوحشة. هنا في كاسباك، يقاتل الرجال بعضهم البعض عندما يلتقون رجالا من أعراق مختلفة لكن أسلحتهم أولاً لقتل الوحوش في الصيد ولا تنفع في الدفاع. نحن لا نصنع الأسلحة خصيصًا لقتل البشر كما يفعل شعبكم. بلدكم لا بد وأنه بلد متوحش، ومن المحظوظ أنك هربت منه إلى سلام وأمان كاسباك.»

كانت هذه وجهة نظر جديدة ومنعشة؛ ولم أستطع أن أعارضها بعد

ما أخبرته به عن الحرب الكبيرة التي كانت دائرة في أوروبا لمدة تزيد عن عامين قبل أن أترك بلادي. أثناء المسير نحو قرية الكرو-لو، كنا نتعرض للمطاردة بشكل مستمر من قبل عدد لا يُحصى من الحيوانات المفترسة، وثلاث مرات هاجمتنا مخلوقات مرعبة؛ لكن أل-تان أخذ كل ذلك كأمر مسلم به، متقدمًا للأمام برمح مرفوع أو مطلقًا سهمًا ثقيلًا في جسد المهاجم ثم يعود لمحادثتنا وكأن شيئًا لم يحدث. مرتين تعرض أفراد من مجموعته للتمزق، وقتل أحدهم على يد وحش وحشي من وحيد القرن؛ لكن بمجرد أن انتهت المعركة، كان الأمر كما لو أنه لم يحدث. تم تجريد الجندي الميت من متعلقاته وترك حيث مات؛ الحيوانات المفترسة ستتكفل بدفنه. كانت الغنائم التي تركها هؤلاء الكرو-لو لآكلات اللحوم ستجعل صيادًا إنجليزيًا ضخمًا من لعبة كبيرة يغار من حسده. صحيح أنهم قطعوا جميع الأجزاء الصالحة للأكل من وحيد القرن وحملوها معهم، لكنهم كانوا مثقلين فعلاً بالغنائم من الصيد، ولولا حبهم الخاص لحم وحيد القرن لما فعلوا ذلك. تركوا الجلد على القطع التي اختاروها، حيث يستخدمونه لصناعة الصنادل وأغطية.

في مسيرتنا نحو قرية كرو-لو، كنا ملاحقين باستمرار من قبل عدد لا يحصى من الوحوش المفترسة، وثلاث مرات تعرضنا لهجمات من مخلوقات مرعبة؛ لكن آل-تان اعتبر ذلك أمرًا عاديًا، فكان يندفع للأمام برمح مرفوع أو يرسل سهمًا ثقيلًا إلى جسد المهاجم ثم يعود إلى حديثنا وكأن شيئًا لم يحدث. تعرض اثنان من أفراد فرقته للنهش، وقتل أحدهم على يد وحيد قرن ضخم وعدواني؛ لكن بمجرد أن انتهت المعركة، كان الأمر كما لو أنه لم يحدث قط. تم

تجريد الرجل الميت من متعلقاته وترك حيث مات؛ وكانت الحيوانات المفترسة ستهتم بدفنه. الجوائز التي تركها هؤلاء الكرو-لو للمفترسات كانت ستجعل صيادًا إنجليزيًا للعبة الكبيرة يشعر بالغيرة. صحيح أنهم قطعوا جميع الأجزاء الصالحة للأكل من وحيد القرن وحملوها معهم إلى المنزل؛ لكنهم كانوا مثقلين بالفعل بغنائم الصيد، وكان حبهم الشديد للحم وحيد القرن هو ما دفعهم لفعل ذلك.

تركوا الجلد على القطع التي اختاروها، حيث يستخدمونه في صناعة الصنادل وأغطية الدروع ومقابض السكاكين والعديد من الأغراض الأخرى التي تتطلب جلودًا قوية. كنت مهتمًا جدًا بدروعهم، خاصة بعد أن رأيت أحدها يُستخدم في الدفاع ضد هجوم نمر ذو أنياب سابر. كان الكائن الضخم قد هاجمنا دون تحذير من بين مجموعة من الأدغال الكثيفة حيث كان يستريح بعد تناوله الطعام. قابلناه بانهيار من الرماح، بعضها مرّ عبر جسده بالكامل، لقوة القذف التي كانت بها. كانت المسافة قصيرة جدًا، مما استدعى استخدام الرمح بدلاً من القوس والسهم؛ ولكن بعد إطلاق الرماح، أرسل الرجال الذين لم يكونوا في مسار الهجوم سهمًا تلو الآخر إلى الجثة الضخمة بسرعة شبه لا تصدق. كان الوحش، وهو يصرخ من الألم والغضب، يندفع نحو تشال-آز بينما كنت أقف عاجزًا ببندقيتي خوفًا من إصابة أحد المحاربين الذين كانوا يقتربون منه. لكن تشال-آز كان جاهزًا. رمى قوسه جانبًا، وانحنى خلف درعه الكبير البيضاوي، الذي كان في وسطه ثقب قطره حوالي ست بوصات. كان الدرع مُثبتًا بحلقات ضيقة على ذراعه اليسرى، بينما كان يمسك في يده اليمنى بسكينه الثقيلة. اندفع القط الكبير المغطى بالرماح والسهام نحو

الدرع، فسقط تشال-آز على ظهره بينما كان الدرع يغطيه

كان الوحش يصرخ من الألم والغضب، ويهجم على تشال-آز بينما كنت واقفًا عاجزًا ببندقيتي خوفًا من إصابة أحد المحاربين الذين كانوا يقتربون منه. لكن تشال-آز كان جاهزًا. رمى قوسه جانبًا، وانحنى خلف درعه البيضاوي الكبير، الذي كان في وسطه ثقب بقطر حوالي ست بوصات. كان الدرع مثبتًا بحلقات ضيقة على ذراعه اليسرى، بينما كان يمسك في يده اليمنى بسكينه الثقيلة. اندفع القط الكبير المغطى بالرماح والسهام نحو الدرع، فسقط تشال-آز على ظهره والدرع يغطيه بالكامل. كان النمر يخمش ويعض على جلد وحيد القرن الثقيل الذي كان يغطي الدرع، بينما كان تشال-آز، من خلال الثقب الدائري في مركز الدرع، يغرز سكينه مرارًا في أحشاء الحيوان الوحشي. لا شك أن المعركة كانت ستؤول لصالح تشال-آز حتى لو لم أتدخل؛ ولكن في اللحظة التي رأيت فيها فتحة واضحة، دون وجود كرو-لو وراءها، رفعت بندقيتي وقتلت الوحش.

عندما نهض تشال-آز، نظر إلى السماء وقال إن الطقس يبدو كأنّه سيمطر. كان الآخرون قد استأنفوا المسير نحو القرية. انتهت الحادثة هنا. لسبب غير مفسر، ذكّرني كل هذا بصديقٍ كان قد أطلق النار على قطة في فناء منزله الخلفي. ولم يتوقف عن الحديث عن ذلك لمدة ثلاثة أسابيع. كان قد اقترب الظلام عندما وصلنا إلى القرية، سور كبير مكون من أكواخ مسقوفة بالأوراق، مجمعة في مجموعات من اثنين إلى سبعة. كانت الأكواخ سداسية الشكل، وعندما كانت مجموعة كانت متصلة بحيث تشبه خلايا خلية النحل. وكل كوخ يعني أن به محاربًا وزوجته، وكل كوخ إضافي

في مجموعة يدل على وجود أنثى أخرى. وقد صنع السور الذي يحيط بالقرية من جذوع الأشجار المتراصة معًا، والمربوطة ببعضها البعض بجذور نباتية قوية كانت مزروعة عند قاعدة الجذوع ومدربة على التداخل لربط الجذوع معًا. كانت الجذوع مائلة إلى الخارج بزاوية حوالي ثلاثين درجة، حيث كانت مثبتة بواسطة جذوع أقصر مدفونة في الأرض بزاوية قائمة مع الجذوع الطويلة، وكانت أطرافها العليا تدعم الأجزاء الأطول بشكل طفيف فوق مراكز توازنها. على قمة السور، كانت هناك أوتاد حادة مدفوعة بزاويا متنوعة.

كان المدخل الوحيد إلى السور من خلال فتحة صغيرة بعرض ثلاثة أقدام وارتفاع ثلاثة أقدام، وكانت مغلقة من الداخل بواسطة جذوع خشب طويلة حوالي ستة أقدام موضوعة أفقياً واحدة فوق الأخرى بين الواجهة الداخلية للسور وجذعين آخرين مدعومين متوازيين مع وجه الجدار من الداخل.

عند دخولنا القرية، استقبلنا حشد من المحاربين والنساء الفضوليين الذين لم يكونوا عدائيين، فشرح لهم تشال-آز بسخاء الخدمة التي قدمناها له، فانهالوا علينا بأطيب الاهتمام، حيث بدا أن تشال-آز كان عضوًا محبوبًا في القبيلة. قدموا لنا قلائد من أنياب الأسود والنمور، وقطعًا من اللحم المجفف، وجلودًا مدبوغة بعناية، وأواني فخارية مزخرفة بشكل جميل، حتى أصبحنا محمّلين بها، وفي الوقت نفسه كان آل-تان يرمقنا بنظرات غاضبة، وكان يبدو أنه غيور من الاهتمام الذي أعطي لنا لأننا قدمنا خدمة لتشال-آز.

أخيرًا وصلنا إلى كوخ خصصوه لنا، وهناك قمنا بطبخ لحومنا وبعض الخضروات التي جلبتها لنا النساء، وشربنا الحليب من الأبقار، وكان هذا أول حليب لي في كاسباك مع جبنة من حليب الماعز البرّي، مع العسل والخبز الرقيق المصنوع من دقيق القمح الذي طحنوه بأنفسهم، والعنب وعصير العنب المخمر. كانت تلك أجمل وجبة تناولتها منذ أن تركت التوريادور وطاهي بوين ج. تايلر الملون، الذي كان يستطيع جعل شرائح اللحم طعمها كالدجاج، والدجاج طعمه كالسماء.

الفصل الخامس

بعد العشاء، قمت بتدخين سيجارة واستلقيت مسترخيًا على كومة من الفراء أمام المدخل، ورأس أجر على حجري، وشعور بالرضا التام يغمرني. كانت هذه المرة الأولى منذ أن عبرت طائرتي فوق جروف كاسباك العاتية التي شعرت فيها بأي إحساس بالسلام أو الأمان. تاهت يدي على وجنة الفتاة التي ادعيتها ملكي، وعلى شعرها الفاخر والحزام الذهبي الذي يربط شعرها إلى رأسها الجذاب. كانت أصابعها الرفيعة تتلمس يدي، ثم أخذت يدي إلى شفتيها، فاحتضنتها في ذراعي وضغطتها إليّ، مغمرًا فمها قبلًا طويلًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي تلامس فيها الرغبة العاطفية علاقتي مع أجر. كنا وحدنا، وكان الكوخ ملكنا حتى الصباح.

لكن الآن، من وراء السور في اتجاه البوابة الرئيسية، سمعنا صراخ الرجال وأصوات الحراس التي كانت تجيبهم. استمعنا. لا شك أن هؤلاء صيادون عائدون. سمعناهم يدخلون القرية وسط نباح الكلاب. نسيت أن أذكر كلاب كرو-لو. كانت القرية تعج بها، مخلوقات هزيلة تشبه الذئاب، التي كانت تحرس القطيع نهارًا عندما كان يرعى خارج السور، عشرة كلاب لكل بقرة. في الليل، كان يتم جمع الأبقار في حظيرة خارجية مغطاة لحمايتها من هجمات القطط المفترسة؛ وكان يُجلب الكلاب، باستثناء عدد قليل، إلى القرية؛ بينما كانت تلك الحيوانات القليلة، التي تم اختبارها جيدًا، تبقى مع القطيع. خلال النهار، كانت تلك الكلاب تتغذى بوفرة على الحيوانات المفترسة التي كانت تقتلها لحماية القطيع، بحيث لم تكن تكاليف طعامها تذكر.

بعد أن خفت الضوضاء عند البوابة، نهضت أنا وأجر للدخول إلى الكوخ، وفي نفس اللحظة ظهر محارب من أحد الأزقة المتعرجة التي تقع بين الأكواخ والمجموعات غير المنتظمة من الأكواخ تكون شوارع قرية كرو-لو. توقف الرجل أمامنا وتحدث إليّ قائلاً إن آل-تان يرغب في وجودي في كوخه. كانت صيغة الدعوة وطريقة المبعوث تثير الدهشة، إذ كانت الدعوة حارة والأخرى محترمة، مما جعلني أذهب طواعية، وأخبرت أجر أنني سأعود قريبًا. كنت قد وضعت أسلحتي وذخائري جانبًا فور أن استلمنا الكوخ، وتركتها مع أجر الآن، حيث لاحظت أنه بخلاف سكاكين الصيد، لم يكن رجال كرو-لو يحملون أسلحة في شوارع القرية. كان هناك جو من السلام والأمان داخل تلك القرية لم أكن أتوقعه في كاسباك، وبعد كل ما مررت به، كان لا بد أن يكون قد ألقي تعويذة مهدئة على حواسي وأحكام عقلي. لقد تناولت زهرة اللوتس للأمان؛ فلم تعد المخاطر تهددني لأنها توقفت عن الوجود.

قادني المبعوث عبر الأزقة المتعرجة إلى ساحة مفتوحة قرب مركز القرية. في أحد طرفي هذه الساحة كان هناك كوخ طويل، الأكبر الذي رأيته حتى الآن، وكان أمام بابه العديد من المحاربين. استطعت أن أرى أن الداخل كان مضاءً وأن عددًا كبيرًا من الرجال مجتمعون فيه. كانت الكلاب حول الساحة كثيرة مثل البراغيث، وكانت تلك التي اقتربت منها تبدي رغبة قوية في التهامني، حيث كانت أنوفها تدرك أنني من جنس مختلف، إذ لم تكن تولي أي اهتمام لرفيقي.

داخل كوخ المجلس، كما بدا لي، كان هناك تجمع كبير من

المحاربين جالسين أو بالأحرى جاثمين على الأرض. في أحد طرفي الفضاء البيضاوي الذي تركه المحاربون في وسط الغرفة، كان يقف آل-تان ومحارب آخر عرفته على الفور بأنه غالو، ثم رأيت أن هناك العديد من الغالوس حاضرين. على الجدران كانت هناك عدة مشاعل ملتهبة مثبتة في ثقوب في الجص الطيني، الذي كان من الواضح أنه يهدف لمنع الحطب والنباتات القابلة للاشتعال التي يتكون منها الكوخ من الاشتعال بفعل النيران. كان هناك عدد من الكلاب المتوحشة ممدة حول المحاربين أو تتنقل بلا راحة ذهابًا وإيابًا.

نظر المحاربون إلي بفضول عندما دخلت، خاصة الغالوس، ثم قادوني إلى وسط المجموعة وأمامي نحو آل-تان. وأثناء تقدمي، شعرت بأن أحد الكلاب يشم رائحتي من خلفي، وفجأة قفزت ضبع ضخم على ظهري. وعندما التفت لدفعها جانبًا قبل أن تجد أنيابها موضعًا في جسدي، رأيت كلبًا أيريدالي ضخمًا يقفز حولي بشكل هستيري. الفم المبتسم، والعيون نصف المغلقة، والأذنان المرتخيتان كانت تخبرني بصوت أعلى من كلام البشر أن هذا ليس عدوًا متوحشًا، بل صديقًا سعيدًا، ثم تعرفت عليه، وركعت على ركبتي ووضعت ذراعي حول عنقه بينما كان يئن ويبكي من الفرح. كان نوبس، نوبس العزيز القديم، كلب بويلين تايلر، الذي كان يحبني بعد سيده.

«أين سيد هذا الكلب؟» سألته، وأنا أتوجه نحو آل-تان.

أمال زعيم القبيلة رأسه نحو الغالو الذي كان يقف إلى جانبه وأجاب: «هو ملك دو-سين الغالو»

«هو ملك بويلين ج. تايلر الابن من سانتا مونيكا، وأريد أن أعرف أين سيده.»

رفع الغالو كتفيه. «الكلب ملكي»، قال. «جاء إليّ كور-سفا-جو، وهو لا يشبه أي كلب في كاسباك، فهو طيب ومطيع ومع ذلك يتحول لمقاتل عندما يغضب. لا أريد أن أفرط فيه. لا أعرف الرجل الذي تتحدث عنه.»

إذن هذا هو دو-سين! هذا هو الرجل الذي هربت منه أجر. تساءلت إن كان يعلم أن أجر هنا. تساءلت إذا كانوا قد أرسلوني من أجلها؛ لكن بعد أن بدأوا في استجوابي، ارتاح عقلي؛ لم يذكروا أجر. بدا أن اهتمامهم مركزًا حول العالم الغريب الذي جئت منه، ورحلتي إلى كاسباك، ونيتي الآن بعد وصولي. أجبتهم بصدق لأنني لم يكن لدي ما أخفيه، وأكدت لهم أن رغبتي الوحيدة هي العثور على أصدقائي والعودة إلى بلدي.

في دو-سين الغالو ومحاربيه رأيت بعض تفسير مصطلح «العرق الذهبي» الذي يُطلق عليهم، إذ كانت زينتهم وأسلحتهم إما مصنوعة بالكامل من الذهب المدقوق أو مزينة بشكل كثيف بالمعدن الثمين. كانوا مجموعة مهيبة من الرجال، طويلين ومستقيمين وجميلين. حول رؤوسهم كانت هناك أشرطة من الذهب مثل التي كانت ترتديها أجر، ومن أكتافهم اليسرى كانت تتدلى ذيول الفهد الخاصة بالغالوس. بالإضافة إلى التونيك المصنوع من جلد الغزال، الذي كان يشكل الجزء الأكبر من زيهم، كان كل منهم يحمل بطانية خفيفة ذات تصميم همجي وجميل، وكان هذا أول دليل على الحياكة رأيته

في كاسباك. لم يكن لدى أجر بطانية، لأنها فقدتها أثناء هروبها من اهتمام دو-سين؛ كما أنها لم تكن مزينة بالذهب مثل هؤلاء الرجال من قبيلتها.

لابد أن المقابلة قد استمرت ما يقارب الساعة عندما أشار آل-تان إلى أنني يمكنني العودة إلى كوخي. طوال الوقت كان نوبس مستلقيًا بهدوء عند قدمي؛ ولكن في اللحظة التي هممت فيها بالمغادرة، كان قد نهض ورائي. نادى عليه دو-سين، لكن الكلب لم يلتفت حتى تجاهه. كنت قد اقتربت من الباب الذي يؤدي إلى قاعة المجلس عندما نهض آل-تان وندد بي. «قف!» صرخ. «قف، أيها الغريب! الوحش التابع لدو-سين الغالو يتبعك.»

أجبته: «الكلب ليس لدو-سين، بل هو ملك صديقي، كما أخبرتك، ويفضل البقاء معي حتى يتم العثور على سيده.» ثم تابعت طريقي مرة أخرى.

لم أمش سوى خطوات قليلة حتى سمعت ضجة خلفي، وفي نفس اللحظة اقترب مني رجل وهمس في أذني «كازار!» - كازار، مكافئ كاسباكي للتحذير وأخذ الحذر. كان تومار. وبينما كان يتحدث، ابتعد بسرعة كما لو كان لا يريد أن يراه الآخرون وهو يعرفني، وفي نفس اللحظة استدرت لاكتشاف دو-سين وهو يسرع خلفي. تبعه آل-تان، وكان واضحًا أن كليهما غاضب. كان دو-سين، وهو سلاحه نصف مسحوب، يقترب بشكل عدواني. «الوحش ملكي» كرر. «هل ستسرقه؟»

أجبته: «هو ليس ملكًا لك ولا لي, ولن أسرقه. إذا أراد أن يتبعك،

فليفعل؛ لن أتدخل؛ ولكن إذا أراد أن يتبعني، فسيبقى معي؛ ولن تمنعه.» ثم توجهت إلى آل-تان. وسألت «أليس هذا عدلاً؟ دع الكلب يختار سيده.»

دو-سين، دون انتظار إجابة آل-تان، مد يده نحو نوبس وأمسكه من رقبة عنقه. لم أتدخل، فقد توقعت ما سيحدث؛ وقد حدث ذلك. مع زئير وحشي، التفت نوبس كالبرق نحو الغالو، وتمكن من التحرر من قبضته وقفز نحو حلقه. تراجع الرجل وصد الهجوم الأول بضربة قوية من قبضة يده، ثم سحب سكينه ليواجه عودة الأيريدالي. وكان نوبس ليرد الهجوم، بلا شك، لو لم أناديه. ناديت عليه بصوت منخفض كي يعود إلي. توقف لثانية، واقفًا هناك مرتعشًا وأنيابه مكشوفة، يحدق في عدوه؛ لكنه كان مدربًا جيدًا وقد قضى وقتًا طويلًا معي كما قضى مع بوين في الواقع، كنت قد شاركت بشكل كبير في تدريبه المبكر؛ ثم مشى ببطء، وهو يرفع ساقيه ثقيلًا، إلى مكانه خلفي.

دو-سين، وقد احمر وجهه من الغضب، كان سيتصارع معنا لولا أن آل-تان جذباه إلى جانب وهمس في أذنه، فبينما كان دو-سين يعبس، سار إلى الطرف الآخر من القاعة، بينما تابعت أنا ونوبس طريقنا نحو الكوخ وأجر. عندما خرجنا إلى ساحة القرية، رأيت تشال-آن، كنا قريبين جدًا من بعضنا لدرجة أنني كنت أستطيع أن أمد يدي وألمسه وتلاقى نظرنا؛ لكن رغم أنني رحبت به وتوقفت لأتحدث إليه، مر من أمامي دون أن يظهر أي علامة على التعرف علي. كنت في حيرة من سلوكه، ثم تذكرت أن تومار، رغم تحذيره لي، بدا غير راغب في إظهار أي ود تجاهي. لم أستطع فهم تصرفهم،

وكنت أحاول أن أجد تفسيرًا لهذا التصرف، حين قاطع تفكيري فجأة دوي طلقة نارية. على الفور، بدأت أركض، وعقلي في دوامة من التنبؤات السيئة، فالمسدسات الوحيدة في بلاد كروليو كانت تلك التي تركتها في الكوخ مع أجر.

لم يمتلكني إلا شعور واحد أنها كانت في خطر، حيث أصبحت الآن ماهرة في التعامل مع كل من المسدس والبندقية، وهو أمر كان يقلل إلى حد كبير من احتمالية أن تكون الطلقة قد جاءت من سلاح ناري مُطلق عن طريق الخطأ. عندما تركت الكوخ، كنت أشعر أنني وأجر في أمان بين الأصدقاء؛ لم يخطر ببالي أي خطر؛ ولكن منذ مقابلتي مع آل-تان، وحضور دو-سين وتصرفاته، والجو الغريب الذي أبداه كل من تو-مار وتشال-آز قد ساهم في إثارة شكوكي، والآن كنت أجري عبر الأزقة الضيقة والمتعرجة في قرية كروليو وقلبي ينبض بسرعة.

أنا موهوبة بحاسة اتجاه ممتازة، والتي تم تطويرها بشكل كبير من خلال السنوات التي قضيتها في الجبال وعلى السهول والصحاري في ولايتي الأم، بحيث لم أواجه صعوبة تذكر في إيجاد طريقي للعودة إلى الكوخ الذي تركت فيه أجر. عندما دخلت من الباب، ناديت باسمها بصوت عالٍ. لم يكن هناك رد. أخرجت علبة من الكبريت من جيبي وأشعلت عودًا، وعندما لاحت لهبته، قفز عليَّ نصف دزينة من المحاربين الضخام من اتجاهات مختلفة؛ ولكن حتى في اللحظة القصيرة التي استمرت فيها اللهب، رأيت أن أجر لم تكن داخل الكوخ، وأن أسلحتي وذخائري قد أزيلت.

بينما قفز الرجال الستة علي، انفجر زئير غاضب من خلفهم. لقد نسيت نوبس. كشيطان من الكراهية، قفز بين رجال كروليو المحاربين، ممزقًا وممزقًا بأنيابه الطويلة وفكيه القويين. كانوا قد أسقطوني في لحظة، ولا شك أن الستة منهم كان بإمكانهم إبقائي هناك لولا نوبس؛ ولكن بينما كنت أكافح لرفعهم عني، كان نوبس يقفز أولًا على أحدهم ثم على الآخر حتى أصبحوا مشغولين للغاية في الحفاظ على حياتهم وجلودهم منه لدرجة أنهم لم يستطيعوا إعطائي سوى جزء صغير من اهتمامهم. كان أحدهم يحاول بجدية ضرب رأسي بفأسه الحجرية؛ لكنني أمسكت بذراعه وفي نفس الوقت، تحولت على بطني، وبعد لحظة فقط تمكنت من وضع قدمي تحت جسمي والنهوض فجأة.

عندما فعلت ذلك، تمسكت بذراع الرجل، حاملًا إياها فوق كتفي. ثم انحنيت فجأة للأمام ورميته فوق رأسي ليسقط بسرعة على الجانب الآخر من الكوخ. في الضوء الخافت للمكان، رأيت أن نوبس قد تعامل بالفعل مع أحدهم-ذلك الذي كان ملقى ساكنًا على الأرض، بينما الأربعة المتبقين على أقدامهم كانوا يهاجمونه بالسكاكين والفؤوس.ركضت إلى جانب الرجل الذي كنت قد أخرجته من المعركة للتو، أمسكته بفأسه وسكينه، وفي لحظة أخرى كنت في قلب المعركة. لم أكن بمقدوري منافسة هؤلاء المحاربين الوحشيين بأسلحتهم الخاصة، وكدت أسقط في الهزيمة والموت الشائنين لولا نوبس، الذي كان وحده منافسًا لهم جميعًا. لم أرَ أي مخلوق أسرع على قدميه من ذلك الأيرديل العظيم، ولا أي وحشية مرعبة كما أظهرها في هجماته. كان ذلك القدر من الوحشية بالإضافة

إلى السرعة هو ما أدى إلى هزيمة أعدائنا، الذين، رغم تعودهم على وحشية المخلوقات الرهيبة، بدا عليهم الرهبة من رؤية هذا الوحش الغريب القادم من عالم آخر يقاتل إلى جانب سيده الغريب أيضًا. ومع ذلك، لم يكونوا جبناء، وفقط بتعاون الفريق تمكنت أنا ونوبس من هزيمتهم في النهاية. كنا نسرع تجاه الرجل معًا، وبينما يقفز نوبس تجاهه كنا نندفع نحو الرجل في وقت واحد، وعندما قفز نوبس نحوه من جانب، كنت أضرب رأسه بالفأس الحجرية من الجانب الآخر. عندما سقط آخر رجل، سمعت صوت خطوات كثيرة تقترب منا من جهة الساحة. كان الأسر الآن يعني الموت؛ ومع ذلك لم أتمكن من محاولة مغادرة القرية دون أن أتأكد أولاً من مكان أجر وإطلاق سراحها إذا كانت محتجزة. لم أكن متأكداً من قدرتي على الهروب من القرية؛ لكنني كنت متأكداً من شيء واحد؛ أنه لن يفيد أجر أو نفسي أن نبقى حيث كنا ويتم أسرنا؛ لذا ومع نوبس، المجروح لكنه سعيد، يتبعني، انعطفت في الزقاق الأول وتسللت مبتعداً في اتجاه الطرف الشمالي من القرية. وحيداً بلا صديق، مطارَداً في متاهات هذا المجتمع المتوحش المظلمة، لم أشعر قط بعجز أكثر مما شعرت به في تلك اللحظة؛ ومع ذلك، ما تجاوز أي خوف قد شعرت به على سلامتي كان اهتمامي بخطر أجر. ما المصير الذي حل بها؟ أين هي، وفي يد من؟ لم أكن متأكداً من أنني سأعيش لأتعلم إجابات هذه الأسئلة؛ لكنني كنت متأكداً من أنني سأواجه الموت بفرح في هذه المحاولة، كنت واثقاً من ذلك. ولماذا؟ مع كل اهتمامي برفاهية أصدقائي الذين رافقوني إلى كابرونا، وأعز أصدقائي على الإطلاق، بوين ج. تايلر، جونيور، لم أشعر أبداً

بالخوف الذي يكاد يشل عن سلامة أي مخلوق آخر كما شعرت به الآن، الذي كان يدفعني بالتناوب إلى حمى من اليأس وعرق بارد من القلق بينما كانت أفكاري تركز على مصير تلك الأنثى شبه المتوحشة التي لم أكن قد حلمت بوجودها قبل بضعة أسابيع فقط. ما هذا التعلق الذي كانت تملكه علي؟ هل كنت مسحوراً، حتى إن عقلي رفض أن يعمل بعقلانية، وأن الحكم والعقل تم تحطيمهما بواسطة بعض العاطفة المجنونة التي رفضت بشدة أن أصدق أنها كانت حباً؟ لم أكن قد أحببت من قبل. ولم أكن في حالة حب الآن، فكرة الحب كانت سخيفة. كيف يمكنني، توماس بيلينغز، الرجل الأيمن للراحل بوين ج. تايلر الأب، أحد أبرز قادة الصناعة في أمريكا وأعظم رجل في كاليفورنيا، أن أكون في حب مع -مع- الكلمة علقت في حلقي؛ ومع ذلك، وفقاً لمعاييري الأمريكية، لم تكن أجر يمكن أن تكون شيئاً آخر؛ في المنزل، وبالرغم من جمالها، وبشرتها المرقشة برقة، كانت أجر الصغيرة وفقاً لملابسها، وعادات شعبها، وأسلوب حياتها، ستصنف «كسكوا». توماس بيلينغز في حب مع سكوا! ارتجفت عند هذه الفكرة.

ثم خطرت لي في لمحة مفاجئة ومضيئة على شاشة الذكريات صورة أجر كما رأيتها آخر مرة، وعشت اللحظة اللذيذة التي تمسكنا فيها ببعضنا البعض والشفاه تتغطى بالشفاه، بينما تركتها لأذهب إلى قاعة المجلس في آل-تان؛ وشعرت بالندم على كوني شخصاً مغروراً وغريب الأطوار كما أثبتت أفكاري، أنا، الذي كنت أفتخر دائماً أنني لست واحداً منهما! مرت هذه الأفكار في ذهني بينما كنت أنا ونوبس نتسلل عبر القرية المظلمة، أصوات وأقدام الذين كانوا يبحثون عنا

ما زالت في آذاننا. هذه وغيرها من الأفكار، ولم أتمكن من الهروب من الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن الصورة الصغيرة التي كانت تدور حولها ذكرياتي وآمالي كانت صورة أجر البربرية المحبوبة! تم قطع تأملاتي همسات خشنة من داخل كوخ مررنا بجانبه. تم نداء اسمي بصوت منخفض، وخرج رجل بجانبي بينما توقفت وأنا أرفع سكيني. كان تشال-آز.

حذرني: «بسرعة! إلى هنا! إنه كوخي، ولن يبحثوا فيه.»

ترددت، متذكراً موقفه قبل دقائق؛ وكأنما قرأ أفكاري، قال بسرعة: «لم أتمكن من التحدث إليك في الساحة دون خطر إثارة الشكوك التي قد تمنعني من مساعدتك لاحقاً، فقد انتشرت الأخبار بأن آل-تان قد انقلب ضدك وسيدمرك-كان هذا بعد وصول دو-سين، الجالو.»

اتبعته إلى الكوخ، ومع نوبس في أعقابنا مررنا عبر عدة غرف إلى مكان بعيد بلا نوافذ حيث كان مصباح صغير يشتعل بصراع غير متكافئ مع الظلام الدامس. فتحة في السقف سمحت بدخان الزيت في الخروج؛ ومع ذلك، كانت الأجواء بعيدة عن النقاء. هنا أشار لي تشال-آز للجلوس على جلد فروي مفروش على الأرض الترابية.

قال: «أنا صديقك، لقد أنقذت حياتي؛ وأنا لست ناكراً للجميل كما هو الباتو آل-تان. سأخدمك، وهناك آخرون هنا سيخدمونك ضد آل-تان وهذا الجالو المرتد، دو-سين.»

«لكن أين أجر؟» سألته، لأنني لم أكن لأهتم لسلامتي الشخصية بينما هي في خطر.

أجاب: «أجر بخير أيضاً، لقد علمنا نوايا آل-تان ودو-سين. الأخير، عندما علم أن أجر هنا، طلبها؛ ووعده آل-تان بأنه سيحصل عليها؛ لكن عندما ذهب المحاربون لأخذها، ذهب تو-مار معهم. حاولت أجر الدفاع عن نفسها. قتلت أحد المحاربين، ثم حملها تو-مار بين ذراعيه بعد أن أخذ الآخرون أسلحتها منها. أخبر الآخرين بأن يعتنوا بالرجل الجريح، الذي كان قد مات فعلاً، وألا يمسكوا بك عند عودتك، وأنه هو، تو-مار، سيأخذ أجر إلى آل-تان؛ لكن بدلاً من أن يأخذها إلى آل-تان، أخذها إلى كوخه الخاص، حيث هي الآن مع سو-آل، شريكة تو-مار. كل شيء حدث بسرعة. كنت أنا وتو-مار في كوخ المجلس عندما حاول دو-سين أخذ الكلب منك. كنت أبحث عن تو-مار لهذه المهمة. خرج فوراً ورافق المحاربين إلى كوخك بينما بقيت لأراقب ما يحدث داخل كوخ المجلس وأساعدك إذا احتجت إلى مساعدة. ما حدث بعد ذلك تعرفه.»

شكرته على إخلاصه، ثم طلبت منه أن يأخذني إلى أجر؛ لكنه قال إنه لا يمكن فعل ذلك، لأن شوارع القرية كانت مليئة بالمفتشين. في الحقيقة، كنا نسمعهم يمرون ويذهبون بين الأكواخ، ويستفسرون، وأخيراً اعتقد تشال-آز أنه من الأفضل أن نذهب إلى باب مسكنه، الذي يتكون من عدة أكواخ ملتصقة ببعضها، حتى لا يدخلوا ويبحثوا. غاب تشال-آز لفترة طويلة، عدة ساعات بدت كأنها أبدية بالنسبة لي. كانت جميع أصوات المطاردة قد توقفت منذ فترة، وكنت أشعر بالقلق بسبب غيابه الطويل عندما سمعت عودته من خلال الغرف الأخرى لموضعه.

شعرت بالانزعاج عندما دخل، وفي وجهه تعبير قلق.

سألته «ما الخطب؟ هل وجدوا أجر؟»

أجاب: «لا, لكن أجر قد ذهبت. تعلمت أنك قد هربت منهم وأُخبرت أنك تركت القرية، معتقدة أنها قد هربت هي أيضاً. لم تتمكن سو-آل من إيقافها. عبرت الجدار المحيط بالقرية وهي مسلحة بسكينها فقط.»

قلت: «إذن يجب أن أذهب,» نهضت ونهض نوبس وهز نفسه. كان قد غفا نومًا عميقًا عندما تكلمت.

وافق تشال-آز : «نعم, يجب أن تذهب فورًا. يكاد يطلع الفجر. دو-سين سيغادر عند شروق الشمس للبحث عنها.» ثم مال بالقرب من أذني وهمس: «هناك الكثيرون الذين سيتبعونك ويساعدونك. آل-تان وافق على مساعدة دو-سين ضد جالوس جور؛ لكن هناك الكثير منا الذين اتحدوا للثورة ضد آل-تان ومنع هذا التدنيس القاسي لقوانين وعادات الكرو-لو وكاسبك. سننهض كما أمر لواتا أن نفعل، وفقط هكذا. لا يمكن لأي باتو أن يحقق مكانة جالو بالخيانة وقوة السلاح طالما أن تشال-آز حي وقادر على توجيه ضربة قوية ورمح حاد ومعه الكرو-لو الأصيلين!»

أجبته: «آمل أن أعيش لأساعدك, لو كان لدي أسلحتي وذخيرتي، لتمكنت من فعل الكثير. هل تعرف أين هي؟»

قال: «لا, لقد اختفت.»

ثم قال: «انتظر! لا يمكنك الخروج نصف مسلح، ومتلثمًا كما أنت.

أنت ذاهب إلى أرض الجالو، ويجب أن تذهب كجالو. تعال!» ودون انتظار للرد، قادني إلى غرفة أخرى، أو لتكون أكثر دقة، إلى أحد الأكواخ العديدة التي شكلت مسكنه الخلوي. هنا كان هناك كومة من الجلود والأسلحة والزينة. «أخلع ثيابك الغريبة،» قال تشال-آز، «وسأجهزك كجالو حقيقي. لقد قتلت عدة منهم في الغزوات أيام شبابي ككرو-لو، وهنا هي زينتهم.»

رأيت الحكمة في اقتراحه، وبما أن ملابسي قد أصبحت بالية لدرجة أنها كانت تغطي نصف عريي فقط، لم يكن لدي أي ندم في خلعها. عاريًا، ارتديت التونيك المصنوع من جلد الغزال الأحمر، وذيل الفهد، والحزام الذهبي، والأساور وأكاليل الساق الخاصة بجالو، مع الحزام، السكين، الدرع، الرمح، القوس والسهم والحبل الطويل الذي تعلمت الآن لأول مرة أنه السلاح المميز لمقاتل الجالو. إنه حبل من الجلد الخام، مشابه للحبال التي كانت تستخدم في سهول الغرب ومخيمات الأبقار في شبابي. الهوندا هو بيضاوي ذهبي ووزنه دقيق ليتناسب مع رمي الحبل. هذا الهوندا الثقيل، كما شرح لي تشال-آز، يُستخدم كسلاح، حيث يُرَمى بقوة ودقة تجاه العدو ثم يُعاد لفه لإعادة الرمي. في الصيد والمعركة، يستخدمون الحبل والهوندا. إذا كان عدة مقاتلين يحيطون بعدو واحد أو فريسة، يربطونه بالحبل من عدة جوانب؛ لكن مقاتل واحد ضد خصم منفرد سيحاول ضرب خصمه بالهندة المعدنية.

لم أكن لأكون أكثر سعادة بأي سلاح، باستثناء البندقية، كان يمكن أن يجد لي تشال-آز، بما أنني كنت بارعًا في استخدام الحبل منذ الطفولة؛ لكن يجب أن أعترف أنني كنت أقل ميلاً نحو ملابسي.

من حيث الإحساس، كان من الممكن أن أكون عارياً تمامًا، نظرًا لقصر ووزن التونيك. عندما سألته عن اسم الحبل الكاسبكي، أخبرني أنه «غا»، وفهمت للمرة الأولى أصل كلمة «جالو»، التي تعني «رجل الحبل». أصبحت مجهزا لم أكن لأتعرف على نفسي، فقد كانت ملابسي وأسلحتي غريبة جدًا. على ظهري كانت تحمل قوسي، سهامي، درعي، ورمحي القصير؛ من وسط حزامي كان معلقًا سكينتي؛ عند خاصرتي اليمنى كان معلقًا فأس الحجر؛ وعند خاصرتي اليسرى كانت تعلوها لفائف الحبل.

من خلال الوصول بيدي اليمنى فوق كتفي الأيسر، كنت أستطيع الإمساك بالرمح أو السهام؛ أما يدي اليسرى فكانت تمسك القوس فوق كتفي اليمنى، بينما كان من الضروري أداء حركة ملتوية لوضع درعي أمامي وعلى ذراعي اليسرى. الدرع، الطويل والبيضاوي، يُستخدم أكثر كدرع للظهر بدلاً من الدفاع ضد الهجوم المباشر، إذ أن الأساور الذهبية الضيقة على الساعد الأيسر تُعتمد أساسًا لصد السكين أو الرمح أو الفأس أو السهم من الأمام؛ ولكن ضد الحيوانات المفترسة الكبيرة وهجمات عدة خصوم بشريين، يُستخدم الدرع بأفضل شكل ويُحمل بواسطة الحلقات على الذراع اليسرى.

مجهزًا بالكامل، باستثناء البطانية، تبعته خارج مسكنه إلى الأزقة المظلمة والمهجورة للكرو-لو. زحفنا بصمت، وكان نوبس صامتًا خلفنا، باتجاه أقرب جزء من الجدار المحيط. هنا، ودعني تشال-آز، قائلًا لي إنه يأمل أن يراني قريبًا بين الجالوس، حيث شعر أن «النداء سيأتي قريبًا» له. شكرته على مساعدته المخلصة ووعدته بأنه سواء وصلت إلى أرض الجالو أم لا، سأظل دائمًا مستعدًا لرد

جميله لي، وأنه يمكنه الاعتماد عليّ في الثورة ضد آل-تان.

الفصل السادس

الركض على السطح المائل للجدار المحيط ثم القفز إلى الخارج كان عملًا لا يستغرق سوى لحظة، أو كان سيستغرق ذلك لولا نوبس. كان عليّ أن أربط حبلي به بعد أن وصلنا إلى القمة، وأرفعه فوق الحواجز المدببة وأخفضه إلى الخارج. كان العثور على أجر في الأرض المجهولة شمالًا يبدو أمرًا محبطًا، ومع ذلك لم يكن أمامي خيار سوى المحاولة، داعيًا في الوقت نفسه أن تمر بأمان وتصل إلى والدها سالمة.

بينما كنت أنا ونوبس نمضي في الضوء المتزايد ليوم قادم، تأثرت بتناقص أعداد الحيوانات المفترسة كلما اتجهت شمالًا. مع انخفاض أعداد الحيوانات آكلة اللحوم، ازداد عدد الحيوانات العاشبة، على الرغم من أنها في أي مكان في كاسباك تكون وفيرة بما يكفي لتوفير الطعام الكافي للحيوانات آكلة اللحوم في كل منطقة. أظهرت الأبقار الوحشية، والغزلان، والظباء، والخيل التي مررت بها تغيرات في التطور مقارنةً بأقاربها في الجنوب. كانت الأبقار أصغر وأقل كثافة الشعر، وكانت الخيول أكبر. شمال قرية الكرو-لو، رأيت مجموعة صغيرة من الخيول بحجم تلك التي كانت في سهولنا الغربية القديمة، مثلما كان الهنود يربونها في الأيام السابقة، وحتى في الوقت الحاضر إلى حد أقل. كانت سمينة ولامعة، ونظرت إليها بعينين حاسدتين وأفكار قد يتخيلها أي راعي قديم بعد أسابيع من السفر على الأقدام؛ ولكنها كانت حذرة، نادرًا ما سمحت لي بالاقتراب ضمن مدى السهام، ناهيك عن مسافة الحبل؛ ومع ذلك

كانت لديّ آمال لم أتخلّ عنها أبدًا.

مرتين قبل الظهيرة، تعرّضنا للمطاردة والهجوم من قبل حيوانات مفترسة، لكن رغم أنني كنت بلا أسلحة نارية، كان لديّ حماية كافية في نوبس، الذي يبدو أنه تعلم شيئًا عن قواعد الصيد الكاسباكية تحت تعليمات دو-سين أو أحد الجالوس، وبالطبع تعلم الكثير من خلال التجربة. كان دائمًا في حالة تأهب تجاه الأعداء الخطيرين، محذرًا إياي بزئير منخفض من اقتراب حيوان مفترس كبير قبل أن أتمكن من رؤيته أو سماعه، وعندما يظهر العدو، كان يركض قائلاً عند قدميه، جاذبًا الهجوم بعيدًا عني حتى أتمكن من العثور على ملجأ في أحد الأشجار؛ ومع ذلك، لم يكن نوبس الماكر يراهن على فرصة غير ضرورية للتهام أو خدش. كان ينقض بسرعة ويهرب بسرعة حتى أن حركة القطط الكبيرة السريعة لم تستطع الوصول إليه. لقد رأيته يعذبهم هكذا حتى كانوا يصرخون غضبًا.

أكبر إزعاج سببه لي الصيادون كان التأخير، لأن لديهم عادة سيئة تتمثل في إبقاء الشخص عالقًا في شجرة لمدة ساعة أو أكثر إذا تم اعتراض خططهم؛ ولكن أخيرًا وصلنا إلى مرأى من سلسلة من المنحدرات التي تمتد شرقًا وغربًا عبر مسارنا بقدر ما يمكن العين رؤيته في أي اتجاه، وعرفت أننا وصلنا إلى الحدود الطبيعية التي تحدد الخط الفاصل بين بلاد الكرو-لو والجالوس. كان الجانب الجنوبي لهذه المنحدرات يرتفع عالياً ومرعبًا، شامخًا على ارتفاع حوالي مئتي قدم، شديد الانحدار دون أي فجوة يمكن للعين أن تراها. كيف يمكنني عبور هذه المنحدرات، لم أتمكن من التخمين. سواء كان يجب البحث نحو الشرق حيث توجد المنحدرات الأكثر

ارتفاعًا التي تطل على المحيط، أو غربًا في اتجاه البحر الداخلي، كان سؤالًا يحيرني. هل هناك العديد من الممرات أو ممر واحد فقط؟ لم يكن لدي وسيلة لمعرفة ذلك. لم يكن أمامي سوى الاعتماد على الحظ. لم يخطر ببالي أن نوبس قد عبرها على الأقل مرة واحدة، وربما مرات أكثر، وأنه قد يقودني إلى الممر؛ وبالتالي، دون أي فكرة عن المساعدة، طلبت منه كما يفعل الإنسان عادة مع الحيوان الأخرس.

قلت: «نوبس، كيف سنعبر هذه المنحدرات؟»

لا أقول إنه فهمني، على الرغم من أنني أدرك أن كلب الأيرديل كلب ذكي للغاية؛ لكنني أقسم أنه بدا وكأنه فهمني، لأنه دار فجأة. كان نوبس ينبح فرحًا ويهرول باتجاه الغرب؛ وعندما لم أتبع خطواته، عاد إلي يركض نافرًا، وأخذ في عض ساقي محاولًا جري في الاتجاه الذي أراد أن أسير فيه. الآن، بما أن ساقي كانت عارية وفك نوبس أقوى بكثير مما يدرك، استسلمت وتبعته، لأنني كنت أعلم أنه لا فرق في الاتجاه، سواء كان غربًا أو شرقًا، على حد علمي بما هو صحيح.

تبعنا قاعدة المنحدرات لمسافة طويلة. كانت الأرض متعرجة ومغطاة بالأشجار، مليئة بالحيوانات العاشبة، وحيدة، في أزواج، وفي قطعان عبارة عن مجموعة متنوعة من الحيوانات العاشبة الحديثة والمنقرضة في العالم. كان هناك ماموث ضخم يهتز ذهابًا وإيابًا في ظل سرخس عملاق، ثور قوي بأسنان كبيرة متقوسة. بالقرب منه كان يرعى ثور من نوع الأوروكس مع بقرة وعجل، بجانب وحيد قرن نائم في حفرة من الغبار. كانت الغزلان، والظباء،

والبيسون، والخيل، والماعز، والأغنام كلها في مرمى النظر في نفس الوقت، وعلى مسافة قصيرة كان هناك ميغاثيريوم عظيم يرفع نفسه على ذيله الضخم وأقدامه الخلفية العريضة ليمزق الأوراق من شجرة طويلة. كان الماضي المنسي يلامس الحاضر-بينما مر توم بيلينغز الرجل العصري في زي الرجل ما قبل العصر الجليدي، وأمامه كان يسير مخلوق من سلالة عمرها بالكاد ستين سنة. كان نوبس حديث العهد؛ لكنه لم يكن يهتم.

بينما اقتربنا من البحر الداخلي، رأينا المزيد من الزواحف الطائرة وعدد من البرمائيات الضخمة، لكن لم يهاجمنا أي منها. وعندما كنا نتسلق إحدى التلال في منتصف بعد الظهر، رأيت شيئًا جعلني أتوقف فجأة. ناديت نوبس همسًا، وحذرته من التحدث، وأبقيته بجانبي بينما رحت أتمدد على الأرض وأراقب، من خلف شجيرة تحميها، مجموعة من المحاربين تقترب من المنحدر من الجنوب. كان من الواضح أنهم من الجالوس، وكنت أخمن أن دو-سين كان يقودهم. لقد اختاروا طريقًا أقصر إلى الممر، وبالتالي لحِقوا بي. كنت أراهم بوضوح، لأنهم لم يكونوا بعيدين، ورأيت براحة أن أجر لم تكن معهم.

كانت المنحدرات أمامهم مكسورة وهشة، تلك القادمة من الشرق تتداخل مع المنحدرات القادمة من الغرب. عبرت المجموعة الممر الذي شكله هذا التداخل. استطعت أن أراهم يتسلقون للأعلى لبضع دقائق، ثم اختفوا عن الأنظار. عندما مر آخرهم من أمامي، نهضت واتجهت نحو الممر-الممر نفسه الذي كان نوبس يقودني إليه على ما يبدو. سرت بحذر وأنا اقترب منه، خشية أن تكون المجموعة

قد توقفت للراحة. إذا لم يتوقفوا، لم يكن لدي خوف من اكتشاف أمري، لأنني كنت قد لاحظت أن الجالوس يسيرون دون نقطة أو حماة للجوانب أو مؤخرة؛ وعندما وصلت إلى الممر ورأيت مسارًا ضيقًا لمرور شخص واحد يرتفع بزاوية حادة، تمنيت لو كنت رئيس الجالوس لبضعة أسابيع. كان بإمكان دزينة من الرجال صد جميع الجيوش التي قد تُرسل من الجنوب إلى الأبد في ذلك الممر الضيق؛ ومع ذلك، كان الممر غير محروس تمامًا.

قد يكون الجالوس شعبًا عظيمًا في كاسباك؛ لكنهم كانوا غير فعالين بشكل مؤلم حتى في أبسط أشكال التكتيك العسكري. فوجئت بأن حتى رجلًا من عصر الحجر لا يمكن أن يكون بهذه الدرجة من نقص البصيرة العسكرية. انخفضت تقديراتي لدو-سين بشكل كبير عندما رأيت تشكيل جيشه العشوائي وهو يعبر أرض العدو ويدخل أراضي الزعيم الذي ثار ضده؛ ولكن لابد أن دو-سين كان يعرف الزعيم جور، ويعلم أن جور لن يكون في انتظاره عند الممر. ومع ذلك، أخذ فرصًا غير مبررة. لو كان لدي وحدة حراسة محلية واحدة، لكان بإمكاني غزو كاسباك.

تبعنا نوبس وأنا إلى قمة الممر، وهناك رأينا المجموعة تمر إلى أرض الجالوس، التي كان مستواها لا يتعدى، بشكل عام، خمسين قدمًا تحت قمة المنحدرات وحوالي مئة وخمسين قدمًا فوق أرض الكرو-لو المجاورة. فورًا تغيرت المناظر. كانت الأشجار، والأزهار، والشجيرات من نوع أقوى، وأدركت أنه في الليل قد يكون غطاء الجالوس ضروريًا تقريبًا.

كان السرو والتوت يهيمنان بين الأشجار؛ ومع ذلك كانت هناك أشجار الرماد والسنديان وحتى الصنوبر والتنوب والهملوك. كانت الحياة الشجرية فوضوية. كانت الغابات كثيفة ومأهولة بأشجار ضخمة. من قمة المنحدر، كنت أرى الغابات ترتفع مئات الأقدام فوق المستوى الذي كنت أقف عليه، وحتى من المسافة التي كنت فيها، أدركت أن جذوع الأشجار كانت عملاقة.

أخيرًا، وصلت إلى أرض الجالوس. رغم أنني لم أُولد في كاسباك، إلا أنني بالفعل قد صعدت كورسفا جو-من البداية صعدت عبر الرعب المروع في المراحل السفلى لتطور كاسباك، ولم يكن بإمكاني إلا أن أشعر بشيء من الفخر والسعادة التي ملأت تو-مار وسو-آل عندما أدركوا أن النداء قد جاء إليهم وأنهم على وشك الصعود من مقام بند-لوس إلى مقام كرو-لوس. كنت سعيدًا لأنني لم أكن باتو.

لكن أين أجر؟ رغم أن عيني كانت تبحث عبر المناظر الطبيعية الواسعة أمامي، لم أرَ شيئًا سوى محاربي دو-سين وحيوانات البراري والغابات. محاطًا بالغابات، كان بإمكاني رؤية سهول واسعة تزين البلاد إلى أبعد مدى يمكن للعين رؤيته؛ لكن لم يكن هناك أي علامة على جالوس شابة، الفتاة المحبوبة التي كنت سأعطي يدي اليمنى لرؤيتها.

أنا ونوبس كنا جائعين؛ لم نأكل منذ الليلة الماضية، وكان تحتنا صيد غزلان،و أغنام، وأي شيء قد يريده صياد جائع؛ لذا نزلنا عبر المسار الحاد، ثم على بطني، وكان نوبس ينخفض خلفي، زحفت نحو قطيع صغير من الغزلان الحمراء التي كانت ترعى على حافة

سهل بجانب غابة. كانت هناك تغطية كافية، مع الأشجار المنفردة والشجيرات المنتشرة، لذا لم أواجه صعوبة في التسلل عبر الرياح إلى مسافة خمسين قدمًا من فريستي-أنثى غزالة كبيرة، دون عجل. عندها شعرت بالندم الشديد لعدم وجود بندقيتي. لم أطلق سهمًا في حياتي، لكنني كنت أعرف كيف يتم ذلك، فركبت السهم على وتر قوسي، صوبت بحذر وأطلقت السهم. في نفس اللحظة ناديت نوبس وقفزت على قدمي.

أصاب السهم الغزالة في جانبها بالكامل، وفي نفس اللحظة كان نوبس يلاحقها. أستدرَت إلى الهروب ونحن نطاردها، نوبس بأسنانه الكبيرة مكشوفة وأنا رمحي القصير مرفوع للاستعداد للطعن. قفز القطيع بعيدًا بسرعة؛ لكن الغزالة المصابة تأخرت، وفي لحظة كان نوبس بجانبها وقد قفز على حلقها. كانت قد سقطت عندما وصلت، وأنهيت أمرها برمحي. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإشعال النار وطهي شريحة اللحم، وأثناء تحضير وجبتي الخاصة، كان نوبس يشبع نفسه من لحم الغزال النيء. لم أستمتع بوجبة كما استمتعت بهذه.

لمدة يومين، بحثت بلا جدوى ذهابًا وإيابًا من البحر الداخلي تقريبًا إلى منحدرات الحاجز بحثًا عن أي أثر لأجر، ودائمًا كنت أميل شمالًا؛ لكنني لم أرَ أي علامة على أي إنسان، حتى على مجموعة محاربي الجالوس بقيادة دو-سين؛ ثم بدأت أشعر بالشكوك. هل كان تشال-آز قد أخبرني الحقيقة عندما قال إن أجر قد تركت قرية الكرو-لو؟ هل من الممكن أنه كان ينفذ أوامر آل-تان، الذي ربما كان في صدره شعور صغير من الخجل لأنه حاول قتل من صادق أحد

محاربي الكرو-لو-ضيف لم يضر قوم الكرو-لو-ومن ثم أرسلني في مهمة بلا جدوى على أمل أن تفعل الحيوانات البرية ما تردد آل-تان في فعله؟ لم أكن أعرف؛ لكن كلما فكرت في الأمر أكثر، أصبحت أكثر اقتناعًا بأن أجر لم تترك قرية الكرو-لو؛ ولكن إذا لم تكن قد تركتها، ما الذي دفع دو-سين للخروج بدونها؟ كان هذا لغزًا، ومرة أخرى كنت في حيرة.

في اليوم الثاني من تجربتي في أرض الجالوس، صادفت مجموعة من الخيول الرائعة التي لم يكن قد قدر لي أن أراها في حياتي. كانت خيولًا داكنة بلون الكستنائي مع وجوه ملونة وعلامات بيضاء مثالية حول بطونها. كانت أرجلها الأمامية بيضاء حتى الركب. في الطول، كانت تقف تقريبًا عند ستة عشر يدًا، وكانت المهور أصغر قليلًا من الفحول.

كان هناك ثلاثة أو أربعة من هذا النوع في هذا القطيع الذي كان يضم العديد من المهرات والخيول الصغيرة شبه الناضجة. كانت علامات خيولهم متشابهة إلى حد بعيد، مما يدل على نقاء السلالة التي قد تكون قد استمرت منذ عصور بعيدة. إذا كنت قد رغبت في أحد المهرات الصغيرة من بلاد الكرولو، تخيل حالتي عندما صادفت هذه المخلوقات الرائعة! لم أكن قد لمحتهم بعد حتى قررت امتلاك واحد منها؛ ولم يستغرق الأمر مني وقتًا طويلاً لاختيار حصان شاب جميل، قدرت عمره بأربع سنوات.

كانت الخيول ترعى بالقرب من حافة الغابة التي كنت أنا ونوبس مختبئين فيها، بينما كانت الأرض بيننا وبينهم مرصعة بشجيرات

مزهرة توفر اختباءً كاملاً. كان الحصان الذي اخترته يرعى مع مهرة واثنين من الجياد الصغيرة بعيدًا قليلاً عن بقية القطيع، وكان الأقرب إلى الغابة وإليّ. عند همسي بكلمة «هجوم!»، اندفع نوبس إلى الأرض، وعرفت أنه لن يتحرك مجددًا إلا إذا ناديت عليه، إلا إذا تهددني خطر من الخلف. تقدمت بحذر نحو فريستي التي كانت لا تشك في شيء، حتى وصلت خفية إلى مكان اختبائي وراء شجيرة لا تبعد أكثر من عشرين قدمًا عنه. هناك قمت بترتيب حبلي بهدوء، مفرودًا ومفتوحًا على الأرض.

الخطوة التالية كانت للانتقال إلى جانب الشجيرة ورمي الحبل مباشرة من الأرض، وهو أسلوبي الأفضل، وكان ذلك سيستغرق لحظة فقط، وفي تلك اللحظة كان من المؤكد أن الحصان سيبدأ بالجري بسرعة قصوى في الاتجاه المعاكس. ثم كان عليه أن يلف ليعود عندما أفاجئه، وعند قيامه بذلك سيرتفع قليلاً على قدميه الخلفيتين ويرتفع رأسه، ليقدم هدفًا مثاليًا لحبلي وهو يلتف.

نعم، كنت قد خططت لذلك بعناية، وانتظرت حتى يلتفت نحوي. أخيرًا، أصبح واضحًا أنه بدأ في التحول في اتجاهي، حينما رفعت المهرة رأسها بلا سبب واضح، وعويت وبدأت في السير بسرعة في الاتجاه المعاكس، تلتها المهور والحصان الذي اخترته. بدا للحظة أن آخر آمالي قد تلاشت، ولكن سرعان ما زال خوفهم، إن كان خوفًا، وعادوا للرعي مرة أخرى على بُعد مئة ياردة. هذه المرة لم يكن هناك أي شجيرة على بُعد خمسين قدمًا منهم، وكنت في حيرة من كيفية الاقتراب منهم بمسافة آمنة للرمي. في مسافة أقل من أربعين قدمًا، أكون ممتازًا في رمي الحبل، وعند خمسين قدمًا أكون جيدًا؛ لكن

فوق ذلك كنت أعرف أن الأمر سيكون مسألة حظ إذا تمكنت من وضع حبلي حول ذلك العنق الرائع.

بينما كنت أفكر في هذا الأمر، كنت على وشك المحاولة بالرمي الطويل. كان لدي حبل طويل بما فيه الكفاية، حيث كان سلاح جالو هذا يبلغ طوله ستين قدمًا. كم كنت أتمنى لو كانت الكلاب الرعوية من المزرعة هنا! بكلمة واحدة، كانت ستدور حول هذا القطيع الصغير وتقوده مباشرة نحوي؛ وفجأة تذكرت أن نوبس قد رافق تلك الكلاب طوال الصيف الماضي، كان يذهب معهم إلى المراعي بعد حلول المساء ويقوم بدوره في قيادة الأبقار إلى الحظيرة، وقد قام بذلك بذكاء؛ لكن نوبس لم يفعل ذلك بمفرده، ومنذ عام لم يقم به أصلاً. على أية حال، كانت الفرص تميل أكثر إلى أنني سأخطئ الرمية الطويلة بدلاً من أن يخطئ نوبس في دوره إذا أعطيته الفرصة.

بعد أن قررت ما يجب فعله، عدت إلى نوبس وأخذته، ثم عدنا معًا إلى شجيرة كبيرة بالقرب من الخيول الأربعة. هنا كنا نستطيع رؤية الحيوانات بشكل مباشر من خلال الشجيرة، وأشرت إلى الخيول وناديت نوبس همسًا: «هيا، هاتهم، يا صديقي!»

في لحظة، كان قد اختفى، متجهًا بشكل واسع إلى مؤخرة القطيع. رآوه على الفور، فبدأوا بالركض بعيدًا عنه؛ لكنهم عندما رأوا أنه يتجنبهم بعيدًا، توقفوا مرة أخرى، رغم أنهم ظلوا يراقبونه برؤوس مرتفعة وفتحات أنوفهم تتنفس بسرعة. كان منظرًا رائعًا. ثم تحول نوبس وراءهم وعاد ببطء نحوي. لم ينبح، ولم يندفع نحوهم،

وعندما اقترب منهم، بدأ يمشي.

بدت المخلوقات أكثر فضولًا منها خائفة، فلم تحاول الهروب حتى اقترب منها نوبس جدًا؛ ثم بدأت في السير ببطء بعيدًا، ولكن بزاوية قائمة.

والآن بدأ المرح والمتاعب. بالطبع، حاول نوبس أن يوجههم، وكان يبدو أنه اختار الحصان ليتعامل معه، حيث لم يهتم بالبقية، وكان لديه من الذكاء ما يجعله يعرف أن كلبًا منفردًا يمكنه أن يركض حتى يسقط قبل أن يتمكن من تجميع أربعة خيول لا ترغب في أن يتم تجميعها. ومع ذلك، كان لدى الحصان أفكاره الخاصة حول أن يتم توجيهه، وكانت النتيجة سباقًا رائعًا كما يمكن أن يتمنى المرء. يا إلهي، كم كان ذلك الحصان سريعًا! كان يبدو أنه يسطح نفسه ويطير في الهواء بأقل جهد ممكن، وأمامه يركض نوبس، يبذل قصارى جهده ليوجهه. كان ينبح الآن، وقفز مرتين عاليا على جنب الحصان؛ لكن هذا كلفه الكثير من الجهد وكان يفقد الأرض كل مرة حيث كان يُقذف رأسًا على عقب بسبب الصدمة؛ ومع ذلك، قبل أن يختفي الحصان وراء ارتفاع في الأرض، كنت متأكدًا من أن إصرار نوبس كان يثمر؛ كان يبدو لي أن الحصان بدأ ينعطف قليلًا إلى اليمين. كان نوبس بينه وبين القطيع الرئيسي، الذي كانت المهرة والجياد الصغيرة قد هربت إليه بالفعل.

بينما كنت أنتظر عودة نوبس، لم أستطع إلا أن أتسائل عن فرصي إذا تعرضت لهجوم من وحش قوي. كنت بعيدًا عن الغابة مسافة، ومسلحًا بأسلحة لم أكن مدربًا على استخدامها، رغم أنني قد تدربت

قليلاً مع الرمح منذ مغادرتي بلاد الكرولو. يجب أن أعترف أن أفكاري لم تكن مريحة، وكانت تكاد تقترب من الجبن، حتى تذكرت أجور الصغيرة في هذه الأرض نفسها، والمسلحة فقط بسكين! شعرت على الفور بالخجل؛ ولكن بعد التفكير في الأمر منذ ذلك الحين، وصلت إلى استنتاج أن حالتي النفسية كانت تأثرت بشكل كبير من تقريبا غريي. إذا لم تكن قد تجولت في وضح النهار مرتديًا قطعة من جلد الغزال الأحمر قصيرة للغاية، فلا يمكنك أن تتصور الإحساس بالعجز الذي يسيطر على المرء. الملابس، بالنسبة للرجل المعتاد على ارتداء الملابس، تمنح ثقة بالنفس معينة؛ أما غيابها فيسبب الذعر.

لكن لم يهاجمني أي وحش، رغم أنني رأيت عدة أشكال مهددة تمر عبر الممرات المظلمة في الغابة. أخيرًا، بدأت أقلق من غياب نوبس الطويل، وأخاف أن يكون قد تعرض لمكروه. كنت ألتف حبلي لأبدأ في البحث عنه، عندما رأيت الحصان يقفز في ظهوره في نفس المكان تقريبًا الذي اختفى فيه، وكان نوبس يركض خلفه. لم يكن كلاهما يركض بنفس السرعة أو العنف كما رأيتهما آخر مرة. كان الحصان، مع اقترابه مني، يبدو أنه يعاني من التعب؛ ومع ذلك، استمر في مهمته بشجاعة، ونوبس أيضًا. كان هذا المخلوق الرائع يقود الفريسة مباشرة نحوي. اختبأت خلف الشجيرة وأعددت حبلي للاستعداد للرمي. عندما اقترب الإثنان من مكان اختبائي، قلل نوبس من سرعته، وكان الحصان، الذي بدا سعيدًا للحصول على قسط من الراحة، بدأ في السير بوتيرة بطيئة. وفي هذه الوتيرة مر الحصان بالقرب مني؛ وبسرعة، طار يدي نحو الحبل، وفتح الحلقات بشكل

جيد، وركض الحصان الجميل برأسه إلى الحبل. على الفور، دار ليهرب بسرعة في الاتجاه المعاكس. ثبتت نفسي باستخدام الحبل حول وركي، وأوقفته فجأة. كان يقفز ويصارع من أجل حريته، بينما كان نوبس يلهث، ولسانه يتدلى، ثم ألقى بنفسه بالقرب مني. بدا وكأنه يعلم أن عمله قد انتهى وأنه قد كسب راحته. كان الحصان قد أنهك بشكل كبير، وبعد دقائق قليلة من الصراع، وقف بأقدام متباعدة، وفتحت فتحات أنفه وعيناه متسعتان، يراقبني وأنا أقترب منه، آخذًا الحبل الزائد كلما اقتربت.

مرة تلو الأخرى، كان يقفز ويحاول الهروب؛ لكنني كنت أتكلم معه بهدوء، وبعد ساعة من الجهد، نجحت في الوصول إلى رأسه ومسح أنفه. ثم جمعت حفنة من العشب وقدمتها له، وواصلت التحدث إليه بصوت هادئ ومطمئن. كنت أتوقع معركة كبيرة؛ لكن على العكس، وجدت أن ترويضه كان أمرًا سهلًا نسبيًا. رغم أنه كان بريًا، كان لطيفًا بدرجة غير عادية، وكان يمتلك ذكاءً ملحوظًا جعله يدرك سريعًا أنه ليس لدي نية لإيذائه. بعد ذلك، أصبح كل شيء سهلًا. قبل أن ينتهي اليوم، كنت قد علمته كيف يقودني وكيف يقف بينما أمسح رأسه وجنبه، وكيف يأكل من يدي، وكان لدي شعور بالرضا وأنا أرى ضوء الخوف يختفي من عينيه الكبيرتين الذكيتين.

في اليوم التالي، صنعت «هاكامور» من قطعة قطعتها من نهاية حبلي الطويل من غالو، ثم ركبت عليه وأنا مستعد تمامًا لصراع ضخم قد لا أكون متأكدًا من أنني لن أكون الخاسر فيه؛ لكنه لم يبذل أي جهد لطردني، ومنذ ذلك الحين كان تعليمه سريعًا. لم يتعلم أي حصان معنى اللجام وضغط الركبتين بسرعة مثلما فعل هو. أعتقد

أنه تعلم أن يحبني سريعًا، وأعلم أنني أحببته؛ وكان هو ونوبس أعز الأصدقاء. أطلقت عليه اسم «آيس». كان لدي صديق كان في السابق في سلاح الطيران الفرنسي، وعندما أطلق آيس سرعته، كان فعلاً يطير.

لا أستطيع أن أشرح لك، ولا يمكنك أن تفهم، إلا إذا كنت أيضًا فارسا، الإحساس المحفز بالرفاهية الذي كان يملؤني منذ اللحظة التي بدأت فيها ركوب آيس. كنت شخصًا جديدًا، ممتلئًا بشعور بالتفوق الذي جعلني أشعر أنه يمكنني الخروج وفتح الطريق لكل كاسباك بمفردي. الآن، عندما كنت بحاجة إلى اللحوم، كنت ألاحقها على آيس وأربطها، وعندما كان هناك وحش ضخم لا يمكننا التعامل معه يهددنا، كنا نركض بعيدًا إلى الأمان؛ لكن في معظم الأوقات، كانت المخلوقات التي نلتقي بها تنظر إلينا بخوف، لأن آيس وأنا معًا كنا نبدو ككائن غريب وفريد لم تعهده تلك المخلوقات من قبل.

لمدة خمسة أيام، كنت أركب ذهابًا وإيابًا عبر الطرف الجنوبي من أرض غالو دون أن أرى أي إنسان؛ ومع ذلك، كنت طوال الوقت أتحرك ببطء نحو الشمال، فقد قررت أن أبحث في المنطقة بشكل دقيق عن أجور؛ ولكن في اليوم الخامس، وبينما خرجت من الغابة، رأيت على بعد مسافة صغيرة أمامي شخصًا واحدًا صغيرًا يطارده العديد من الآخرين. فورًا، تعرفت على الفريسة أنها أجور. كان الجميع على بعد ميل كامل عني، وكانوا يعبرون طريقي بزاوية قائمة، وكانت أجور على بعد بضع مئات من الياردات أمام أولئك الذين يتبعونها. كان أحد مطارديها بعيدًا جدًا عن البقية، وكان يقترب منها بسرعة. بكلمة واحدة وضغط على الركبتين، جعلت آيس

يقفز إلى العراء، ومع نوبس يركض بجانبه، ركضنا نحوها.

في البداية، لم يرنا أحد منهم؛ لكن عندما اقتربنا من أجور، اكتشفنا من قبل باقي المطاردين الذين بدأوا في إصدار أصوات لم أسمعها من قبل. كانوا جميعًا من غالو، وسرعان ما تعرفت على الأول فيهم أنه «دوسين». كان قريبًا جدًا من أجور الآن، وبشعور من الرعب لم أختبره من قبل، رأيت أنه كان يركض ومعه سكين في يده، وكانت نيته القتل بدلاً من القبض عليها. لم أستطع فهم ذلك، ولكنني لم أستطع إلا أن أحث آيس على مزيد من السرعة، وقد استجاب المخلوق الرائع لطلباتي بشكل نبيل. إذا كان هناك أي مخلوق رباعي الأرجل اقترب من الطيران، فهو آيس في ذلك اليوم.

كان دوسين، وهو مهووس بنواياه الوحشية، لم يلاحظنا بعد. كان على بعد خطوة من أجور عندما عبرنا نحن وآيس بينهما، وأنا منحنٍ إلى اليسار، سحبت البربري الصغير إلى ذراعي وحملته إلى ظهر آيس الرائع. كنا قد انتزعناها من قبضة دوسين الذي توقف، مذهولًا وغاضبًا. كانت أجور أيضًا في حالة من الذهول، حيث جئنا من خلفها بزاوية بحيث لم تكن لديها فكرة أننا بالقرب منها حتى تم رفعها إلى ظهر آيس. التفتت الفتاة الوحشية بسكينها المسحوب لتطعنني، معتقدة أنني عدو جديد، لكنها عندما رأت وجهي تعرفت علي. وبصوت مختنق قالت: «توم! توم!»

ثم غاص آيس فجأة في الوحل الكثيف حتى بطنه، وألقيت أنا وأجور بعيدًا فوق رأسه. كان قد وقع في واحدة من تلك الينابيع العديدة التي تغطي كاسباك. في بعض الأحيان تكون بحيرات

صغيرة، وأحيانًا بركًا ضئيلة، وغالبًا مستنقعات من الوحل كما كان هذا، مغطى بالأعشاب الكثيفة التي أخفت هويته الخادعة. من العجيب أن آيس لم يكسر ساقه، فقد كان يركض بسرعة عندما سقط؛ لكنه لم يكسرها، رغم أنه بأربعة أرجل سليمة لم يستطع الخروج من الوحل. أما أنا وأجور فقد سقطنا على بطوننا في الأعشاب، ولم نغرق بعمق؛ لكن عندما حاولنا النهوض، وجدنا أنه لا يوجد موطئ قدم، وفيما بعد رأينا أن دوسين وأتباعه يقتربون منا. لم يكن هناك مفر. كان واضحًا أننا في خطر.

توسلت أجور: «اقتلني! دعني أموت على يديك المحبوبتين بدلاً من أن أموت تحت سكين هذا الكائن البغيض، لأنه سيقتلني. لقد أقسم على قتلي. لقد أسرّني الليلة الماضية، وعندما حاول أن يفعل بي ما يريد، ضربته بيدي وطعنته بسكيني، ثم هربت، تاركة إياه يصرخ من الألم والرغبة المحبطة. اليوم بحثوا عني ووجدوني؛ وعندما هربت، تبعني دوسين وهو يصرخ أنه سيقتلني. اقتلني، يا توم، ثم اسقط على رمحك، لأنهم سيقتلونك بشكل فظيع إذا أخذوك حيًا.»

لم أستطع قتلها، ليس على الأقل حتى اللحظة الأخيرة؛ وأخبرتها بذلك، وأخبرتها أنني أحبها، وأنني سأعيش وأقاتل من أجلها حتى يأتي الموت. كان نوبس قد تبعنا إلى المستنقع وكان قد تمكن من التقدم بشكل جيد في البداية، لكن عندما اقترب منا غرق هو أيضًا حتى بطنه ولم يستطع سوى التملص في الوحل. كنا في هذا المأزق عندما اقترب دوسين وأتباعه من حافة المستنقع المروع. رأيت أن أل-تان كان معهم ومعهم العديد من محاربي الكرو-لو. إذًا، قد

تم التحالف ضد الزعيم جور، وكانت هذه الحشود قد بدأت بالفعل الزحف نحو مدينة غالو. تنهدت وأنا أفكر كم كنت قريبًا من إنقاذ أجور ووالدها وقومه من الهزيمة والموت.

كان وراء المستنقع غابة كثيفة. لو تمكنا من الوصول إليها، لكنا آمِنين؛ لكنها كانت تبدو بعيدة كما لو كانت مئة ميل بدلًا من مئة ياردة عبر بحيرة الوحل المخفية تلك. على حافة المستنقع، توقف دوسين وحشدهم ليلعنونا. لم يستطيعوا الوصول إلينا بأيدهم؛ لكن بأمر من دوسين، ركّبوا سهامهم على أقواسهم، ورأيت أن النهاية قد جاءت. اجتمعت أجور بالقرب مني، وأخذتها بين ذراعي. «أنا أحبك يا توم، فقط أنت.» قالت ذلك، ثم انهمرت دموعي، لم تكن دموع شفقة على وضعي، بل دموع من قلب مملوء بالحب العظيم-قلب يرى شمس حياته وحبّه تغرب في وقت شروقها.

وقف المرتزقة من الغالو وحلفاؤهم من الكرو-لو منتظرين إشارة من دوسين لإطلاق تلك الانهيار المسموم من الموت علينا، حين انبعث من الغابة وراء المستنقع أحلى موسيقى سمعها الإنسان على الإطلاق-الطلقات السريعة المتتالية من ما لا يقل عن أربعين بندقية تطلق بسرعة حسب الإرادة. سقط محاربو الغالو والكرو-لو مثل الدبابيس أمام تلك الهجمات القاتلة. ماذا كان يعني ذلك؟ بالنسبة لي، كان يعني شيئًا واحدًا فقط، وهو أن هوليس وشورت والآخرين قد تسلقوا المنحدرات وقطعوا طريقهم شمالًا إلى أرض الغالو في الجانب الآخر من الجزيرة في الوقت المناسب لإنقاذ أجور وأنا من الموت المحتوم. لم أكن بحاجة إلى مقدمة لهم لأعرف أن الرجال الذين كانوا يحملون تلك البنادق هم رجال مجموعتي؛ وعندما، بعد

بضع دقائق، خرجوا من مخابئهم، تأكدت عيناي من آمالي. كانوا هناك، كل واحد منهم؛ ومعهم ألف محارب مستقيم ولامع من سلالة الغالو؛ وأمام الآخرين كان هناك رجلان يرتديان زي الغالو. كان كل منهما طويلًا ومستقيمًا وعضليًا بشكل رائع؛ ومع ذلك، كانا يختلفان كما يختلف آيس عن نموذج مثالي من نوع آخر. وعندما اقتربوا من الوحل، مدت أجور ذراعيها وصرخت، «جور، يا قائد! يا أبي!» فاندفع الأكبر بين الرجلين داخل الوحل حتى ركبتيه لإنقاذها، ثم اقترب الآخر ونظر إلى وجهي، ونظرت في عينيه، وكذلك في عيني، وصرخت: «بوين! من أجل الله، بوين تايلر!»

لقد كان هو. انتهى بحثي. من حولي كان جميع أفراد مجموعتي والرجل الذي بحثنا في عالم جديد للعثور عليه. قطعوا من الغابة فروعًا صغيرة وبدأوا في صنع طريق داخل المستنقع حتى تمكنوا من إخراجنا جميعًا، ثم عدنا سيرًا إلى مدينة جور قائد الغالو، وكان هناك احتفال كبير عندما عادت أجور إلى وطنها على ظهر الفرس اللامع آيس.

كان تايلر وهوليس وشورت وكلنا من الأمريكيين نكاد نخرج فكوكنا أثناء العودة إلى القرية، ولعدة أيام بعد ذلك استمررنا في الحديث. أخبروني كيف عبروا الجروف العازلة في خمسة أيام، يعملون عشرين ساعة في اليوم في ثلاث ورديات من ثماني ساعات مع فترتين راحة لكل وردية تتبدلان نصف ساعة كل منهما. استخدم رجلان المثاقب الكهربائية المدفوعة من الدينامو على متن التورادور، وحفروا حفرتين يفصل بينهما أربعة أقدام في جدار الجرف وعلى نفس المستوى الأفقي. الحفر مالت قليلاً للأسفل. في

هذه الحفر، تم إدخال قضبان حديدية كانت جزءًا من معداتنا ومن أجل هذا الغرض بالذات، امتدت حوالي قدم واحدة من الجرف، وعلى هذه القضبان كان يتم وضع لوح خشبي، ثم يتم حفر حفرتين أخريين على مستوى أعلى بخمسة أقدام عن المنصة الجديدة، وهكذا.

خلال الليالي ظلت الأضواء الكاشفة من التورادور موجهة على الجرف في النقطة التي كانت تعمل بها المثاقب، وبسرعة عشرة أقدام في الساعة تم الوصول إلى القمة في اليوم الخامس. تم إنزال الحبال، وربط الكتل بالأشجار في الأعلى، وتم تركيب مصاعد بدائية، حتى أنه في ليلة اليوم الخامس كانت المجموعة بأكملها، باستثناء عدد قليل من الرجال اللازمين لتشغيل التورادور، قد دخلوا كاسباك مع وفرة من الأسلحة والذخيرة والمعدات. منذ ذلك الحين، خاضوا طريقهم شمالًا بحثًا عني، بعد محاولة بائسة وخطرة لدخول الأرض المملوءة بالزواحف إلى الجنوب. نظرًا لعدد الأسلحة التي كانت معهم، لم يخسروا أي رجل؛ لكن طريقهم كان مليئًا بالكائنات الميتة التي اضطروا لقتلها لفتح طريقهم إلى الطرف الشمالي للجزيرة، حيث وجدوا بوين وزوجته بين الغالوس في مدينة جور.

إن لم شمل بوين ونوبس مصحوبة بعرض محموم من نوبس، الذي كاد أن يخلع على بوين الملابس القليلة التي منحته إياها عادات الغالو. عندما وصلنا إلى مدينة الغالو، كانت ليس لا رو في انتظارنا للترحيب بنا. أصبحت الآن السيدة تايلر، حيث تزوجها قائد التورادور في اليوم الذي وجدت فيه مجموعة البحث بوين وزوجته، رغم أن ليس وبوين لم يعترفا أبدًا بأن أي طقوس مدنية

أو دينية كانت لتجعل الروابط التي جمعهم بها الله أكثر قدسية.

لم يكن بوين ولا المجموعة من التورادور قد رأوا أي علامة على برادلي ومجموعته. كانوا قد ضاعوا منذ فترة طويلة لدرجة أن أي أمل فيهم كان قد تم التخلي عنه. كانت الغالوس قد سمعت شائعات عنهم، كما كان الحال مع الكرو-لو الغربيين والباند-لو، لكن لم يرهم أحد منذ أن غادروا حصن الديناصور منذ أشهر. استرحنا في قرية جور لمدة أسبوعين أثناء استعدادنا للرحلة إلى الجنوب إلى النقطة التي كان من المفترض أن يظل فيها التورادور قبالة الشاطئ في انتظارنا. خلال هذين الأسبوعين، جاء تشال-آز من بلاد الكرو-لو، وقد أصبح الآن غالو كاملًا. أخبرنا أن بقايا جماعة آل-تان قد قُتلوا عندما حاولوا إعادة دخول كرو-لو. تم تعيين تشال-آز قائدًا، وعندما نهض، ترك القبيلة تحت قيادة زعيم جديد يحترمه الجميع.

ظل نوبس ملتصقا ببوين؛ ولكني خرجت مع آيس وأجور في العديد من الرحلات الطويلة عبر البلاد الجميلة في شمال الغالو. وقد جلب تشال-آز لي أسلحتي وذخائري من الكرو-لو معه؛ لكن ملابسي كانت قد اختفت؛ ولم أفتقدها بمجرد أن اعتدت على الملابس الحرة للغالو.

وأخيرًا جاء وقت رحيلنا؛ في صباح اليوم التالي كان من المفترض أن نغادر نحو الجنوب والتورادور وكاليفورنيا العزيزة. طلبت من أجور أن تذهب معنا؛ لكن والدها جور رفض الاستماع إلى الاقتراح. لم تستطع أي توسلات أن تغيّره عن قراره: أجور، الكوس-آتا-لو، التي قد ينبثق منها جنس كاسباكي جديد وأعظم، لا يمكن الاستغناء عنها.

كان بإمكاني أن أختار أي فتاة أخرى من الغالوس؛ لكن أجور فلا!

كانت الطفلة المسكينة محطمة القلب؛ أما بالنسبة لي، وكنت ببطء أدرك تأثير أجور على قلبي وتساءلت كيف سأستطيع العيش من دونها. بينما كنت أحملها بين ذراعي في تلك الليلة الأخيرة، حاولت تخيل كيف سيكون الحال من دونها، لأنني أخيرًا أدركت أنني أحبها، أحب بربريتي الصغيرة؛ وعندما تمزقت عني أخيرًا وتوجهت إلى كوخي لأخذ بضع ساعات من النوم قبل أن نبدأ رحلتنا الطويلة في الصباح، حاولت أن أواسي نفسي بالفكرة أن الزمن سيشفي الجرح وأنني في بلدي الأم سأجد شريكة ستكون لي أكثر من أجور بكثير، امرأة من عرقي وثقافتي.

جاء الصباح أسرع مما كنت أتمنى. استيقظت وتناولت الفطور، لكنني لم أرَ أجور. كنت أظن أنه من الأفضل لي أن أغادر هكذا دون ألم الوداع الأخير. تشكلت المجموعة للمسير، وكان هناك حراسة من محاربي الغالو جاهزين لمرافقتنا. لم أستطع حتى تحمل الذهاب إلى حظيرة آيس لأودعه. في الليلة السابقة، كنت قد تركته مع أجور، والآن في عقلي بدا أن الاثنين لا ينفصلان.

وهكذا بدأنا المسير، عبر الشارع المحاط بالمنازل الحجرية، وخارج البوابة الواسعة في الجدار الحجري الذي يحيط بالمدينة، عبرنا إلى الفسحة التي كانت تؤدي إلى الغابة التي يجب أن نعبرها للوصول إلى الحدود الشمالية للغالو، وبعدها سنتوجه نحو الجنوب. عند حافة الغابة، ألقيت نظرة خلفي إلى المدينة التي كانت تحوي قلبي، وعند البوابة الضخمة، رأيت ما جعلني أتوقف فجأة. كانت هناك

شخصية صغيرة مستندة إلى أحد الأعمدة الكبيرة التي تدور حولها الأبواب-شخصية صغيرة منكمشة؛ وحتى من هذه المسافة، كنت أرى كتفيها يرتجفان من التأوهات التي كانت تفتتها. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

كان بوين قريبًا مني. وقال «وداعًا يا رجل»، قلت. «سأعود.»

نظر إليّ في دهشة. «وداعًا يا رجل »، قال، وأمسك بيدي. «كنت أظن أنك ستفعلها في النهاية.»

ثم عدت وأخذت أجور بين ذراعي، وقبلت الدموع من عينيها وابتسامة على شفتيها بينما كنا نراقب معًا آخر الأمريكيين يختفون في الغابة.

النهاية